

العدد: ٨٠ ذو القعدة ١٤٢١هـ السنة العشرون

نحن والحضارة والشهود

الجزء الأول

الدكتور نعمان عبد الرزاق السامرائي

الطبعـة الأولى

ذو القعدة ١٤٢١ هـ

كانون الثاني (يناير) - شباط (فبراير) ٢٠٠١م

نعمان عبد الرزاق السامرائي

نحن والحضارة والشهود

الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ٢٠٠١م .

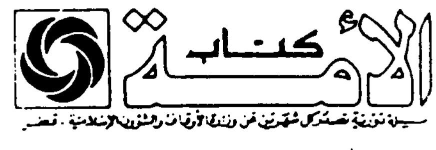
٢٢٠ص ، ٢٠ سم - (كتاب الأمة، ٨٠) .

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية : ٢٩ / ٢٠٠١

الرقم الدولي (ردمك): ٠ - ١٦ - ٤٨ - ٩٩٩٢١

أ . العنوان ب . السلسلة .

موقعنـا على الإنتـرنت:
www.islam.gov.qa
البريد الإلكتروني E-Mail:
M_Dirasat@Islam.gov.qa



صدر منه :

- **مشكلات في طريق الحياة الإسلامية**

« طبعة ثالثة » - الشيخ محمد الغزالي

- **الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف**

« طبعة ثالثة » - الدكتور يوسف القرضاوي

- **العسكرية العربية الإسلامية**

« طبعة ثالثة » - اللواء الركن محمود شيت خطاب

- **حول إعادة تشكيل العقل المسلم**

« طبعة ثالثة » - الدكتور عماد الدين خليل

- **الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري**

« طبعة ثالثة » - الدكتور محمود حمدي زقزوق

- **المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري**

« طبعة ثالثة » - الدكتور محسن عبد الحميد

- **الحرمان والتخلف في ديار المسلمين**

« طبعة ثالثة + طبعة إنجليزية » الدكتور نبيل صبحي الطويل

- **نظرات في مسيرة العمل الإسلامي**

« طبعة ثانية » - الأستاذ عمر عبيد حسنه

- **أدب الاختلاف في الإسلام**

« طبعة ثانية» - الدكتور طه جابر فياض العلواني

- التـــــراث والمعـــاصـــرة

« طبعة ثانية » - الدكتـــور أكـــرم ضيـــــاء العمـــري

- مشكلات الشباب: الحلول المطروحة والحل الإسلامي

« طبعة ثانية » - الدكتـــور عبـــاس محـجـــوب

- المسلمون في السنغال - معالم الحاضر وآفاق المستقبل

« طبعة أولى » - الأستـــاذ عبد القـــادر محمـــد سيـــلا

- البنـــوك الإســـلاميـــة

« طبعة أولى » - الدكتـــور جمـــال الديـــن عطيـــة

- مدخـــل إلـى الأدب الإســـلامـــي

« طبعة أولى » - الدكتـــور نجيـــب الكيـــــلاني

- المخـدرات مـن القـلـق إلـى الاستعبـاد

« طبعة أولى » - الدكتـــور محمـــد محمـــود الهـــواري

- الفـكـر المنهجـي عنـد المحـدثين

« طبعة أولى » - الدكتـــور همـــام عبـد الرحيـم سعيـد

- فقـه الدعـوة ملامـح وآفـاق في حوار

الجزء الأول والثاني «طبعة أولى» + طبعة خاصة بمصر - الأستاذ عمر عبيد حسنه

- قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر

« طبعـة أولى » - الدكـتـور زغلـول راغـب النجـار

- دراسـة فـي البنـاء الحضـاري

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور محمود محمد سفر

- في فـقـه التـديـن فـهـمـاً وتـنـزيـلاً

الجزء الأول والثاني «الطبعة الأولى» + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور عبدالمجيد النجار

- **في الاقتصاد الإسلامي (المرتكزات ـ التوزيع ـ الاستثمار ـ النظام المالي)**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور رفعت السيد العوضي

- **النظرية السياسية الإسلامية في حقوق الإنسان الشرعية ـ دراسة مقارنة**

«طبعة أولى» + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور محمد أحمد مفتي والدكتور سامي صالح الوكيل

- **أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور أحمد محمد كنعان

- **المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور عبد العظيم محمود الديب

- **مقالات في الدعوة والإعلام الإسلامي**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ نخبة من المفكرين والكتاب

- **مقومات الشخصية المسلمة أو الإنسان الصالح**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور ماجد عرسان الكيلاني

- **إخراج الأمة المسلمة وعوامل صحتها ومرضها**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور ماجد عرسان الكيلاني

- **الصحوة الإسلامية في الأندلس**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ـ الدكتور علي المنتصر الكتاني

- **اليهود والتحالف مع الأقوياء**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ـ الدكتور نعمان عبد الرزاق السامرائي

- **الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ـ الأستاذ منصور زويد المطيري

- **النظم التعليمية عند المحدثين**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر - الأستاذ المكي أقلاينة

- **العقل العربي وإعادة التشكيل**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر - الدكتور عبد الرحمن الطريري

- **إنفاق العفو في الإسلام بين النظرية والتطبيق**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر - الدكتور يوسف إبراهيم يوسف

- **أسباب ورود الحديث**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر - الدكتور محمد رأفت سعيد

- **في الغزو الفكري**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر - الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح

- **قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي**

الجزء الأول والثاني « طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر - الدكتور أكرم ضياء العمري

- **فقه تغيير المنكر**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر - الدكتور محمد توفيق محمد سعد

- **في شرف العربية**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ، وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور إبراهيم السامرائي

- **المنهج النبوي والتغيير الحضاري**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الأستاذ برغوث عبد العزيز بن مبارك

- **الإسلام وصراع الحضارات**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور أحمد القديدي

- **رؤيـــة إسلاميـــة فـي قـضـايــا معاصــرة**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور عماد الدين خليل

- **المـســتــقــبـــل للإســـــلام**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور أحمد علي الإمام

- **التوحيـد والوساطــة في التربيـــة الدعــويـة**

الجزء الأول والثاني « طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب ـ الأستاذ فريد الأنصاري

- **الإســــلام وهـمــــوم الـنـــاس**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب ـ الأستاذ أحمد عبادي

- **التأصيـــل الإســلامي لنظريـــات ابن خلـدون**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور عبد الحليم عويس

- **عمرو بن العاص.. القائد المسلم.. والسفير الأمين**

الجزء الأول والثاني « طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب ـ اللواء الركن محمود شيت خطاب

- **وثيقـة مؤتمر السكـان والتنـــميـة.. رؤية شرعية**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور الحسيني سليمان جاد

- **في السيرة النبوية.. قراءة لجوانب الحذر والحماية**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور إبراهيم علي محمد أحمد

- **أصول الحكم على المبتدعة عند شيخ الإسلام ابن تيمية**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتورأحمد بن عبد العزيز الحليبي

- **من مرتكزات الخطاب الدعوي في التبليـغ والتطبيق**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب ـ الأستاذ عبد الله الزبير عبد الرحمن

- **عبد الحميد بن باديس رحمه الله وجهوده التربوية**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الأستاذ مصطفىٰ محمد حميداتو

- **تخطيط وعمارة المدن الإسلامية**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الأستاذ خالد محمد مصطفى عزب

- **نحو مشروع مجلة رائدة للأطفال**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور مالك إبراهيم الأحمد

- **المنظور الحضاري في التدوين التاريخي عند العرب**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور سالم أحمد محل

- **من فقه الأقليات المسلمة**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الأستاذ خالد عبد القادر

- **الاجتهاد الجماعي في التشريع الإسلامي**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور عبد المجيد السوسوه الشرفي

- **النظم التعليمية الوافدة في أفريقيا .. قراءة في البديل الحضاري**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور قطب مصطفىٰ سانو

- **إشكاليات العمل الإعلامي .. بين الثوابت والمعطيات العصرية**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور محي الدين عبد الحليم

- **الاجتهاد المقاصدي .. حجيته .. ضوابطه .. مجالاته**

الجزء الأول والثاني « طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور نور الدين بن مختار الخادمي

- **القيم الإسلامية التربوية والمجتمع المعاصر**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الأستاذ عبد المجيد بن مسعود

- **أضواء على مشكلة الغذاء في العالم العربي الإسلامي**

«طبعة أولى» + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الأستاذ عبد القادر الطرابلسي

- **نحو تقويم جديد للكتابة العربية**

«طبعة أولى» + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الأستاذ الدكتور طالب عبد الرحمن

- **دور المرأة في رواية الحديث في القرون الثلاثة الأولى**

«طبعة أولى» + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الأستاذة آمال قرداش بنت الحسين

- **الإعلان من منظور إسلامي**

«طبعة أولى» + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور أحمد عيساوي

- **تكوين الملكة الفقهية**

«طبعة أولى» + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الأستاذ الدكتور محمد عثمان شبير

- **الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري.. أنموذج مالك بن نبي**

«طبعة أولى» + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الأستاذ بدران بن مسعود بن الحسن

- **الترويح وعوامل الانحراف.. رؤية شرعية**

«طبعة أولى» + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الأستاذ عبد الله بن ناصر السدحان

- **فقه الواقع.. أصول وضوابط**

«طبعة أولى» + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الأستاذ أحمد بوعود

- **دعوة الجماهير.. مكونات الخطاب ووسائل التسديد**

«طبعة أولى» + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور عبد الله الزبير عبد الرحمن

- **المصطلح خيار لغوي وسمة حضارية**

«طبعة أولى» + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الأستاذ سعيد شبار

- **عالم إسلامي بلا فقر**

«طبعة أولى» + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور رفعت السيد العوضي

قال تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ...﴾

(البقرة: ١٤٣)

تقديم

بقلم: عمر عبيد حسنه

الحمد لله الذي أورثنا الكتاب واصطفانا لحمل الرسالة الخاتمة، جماع الرسالات السماوية، فقال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا... ﴾ (فاطر:٣٢)، وقال: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ... ﴾ (المائدة:٤٨)، وجعل الرسالة الخاتمة رسالة إنسانية للعالمين، وجعل الغاية من النبوة إلحاق الرحمة بالعالمين فقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء:١٠٧).

والصلاة والسلام على من انتهت إليه رسالات الأنبياء، وتحققت فيه كمالات الرسل، فبرسالته تكامل الدين وكمل، واختُتمت النبوة، وتم البناء، فجاءت نبوته ورسالته على خط النهاية من الرسل، قال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ (المائدة:٣)، وقال: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ (الأحزاب:٤٠)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ﴾ (النساء:١٦٣).

وقال الرسول ﷺ : «**إن مَثلي ومَثَلَ الأنبياء من قبلي، كمثل رجلٍ بنى بيتًا فأحْسَنهُ وأجْمَلَهُ، إلا موضعَ لبنةٍ من زاويةٍ، فجعلَ الناسُ يطوفونَ بهِ ويعجبون لَهُ، ويقولون: هلاّ وُضِعَتْ هذه اللبنةُ، قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين**» (أخرجه البخاري).

وبعد :

فهذا كتاب الأمة الثمانون (نحن والحضارة والشهود) للأستاذ الدكتور نعمان عبد الرزاق السامرائي، في سلسلة كتاب الأمة الذي يصدر عن مركز البحوث والدراسات في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة قطر، مساهمة في التشكيل الثقافي، والوعي الحضاري، واسترداد دور الأمة المسلمة في الشهود الحضاري والحضور الإنساني، وإعادة تأهيلها لتكون محلاً لشهادة الرسول ﷺ عليها، ومن ثم تتمتع بصفة المعيارية التي تجعلها مؤهلة لأن تكون شهيدة على الناس، تسهم بمعالجة أزمة الحضارة الإنسانية اليوم، مهتدية في ذلك بقيمها ومرجعيتها وتجربتها الإنسانية التاريخية، بعد هذا التيه من الغياب والشتات والتراجع الحضاري.

إن عملية التحضير لردم فجوة التخلف وعودة الشهود الحضاري والتأهيل لمعاودة الإقلاع واستئناف دور الأمة في البناء الحضاري وبناء

رؤية مستقبلية، سوف لا يتحقق لها النجاح ما لم تأخذ في اعتبارها استيعاب الماضي، بكل معطياته، كما تقتضي الإحاطة بالحاضر، بكل مكوناته، كمقدمة للمستقبل، ومن ثم إبصار المستقبل وتوفير واكتساب أدوات بنائه واستكمالها.

ولعلنا لا نأتي بجديد إذا أكدنا أن أي انطلاق من جديد، أو أي إقلاع حضاري، لابد له من الإحاطة بمرحلة القدوة على وجه الخصوص، ذلك أن نهوض أي مجتمع أو معاودة توليده مرهون إلى حد كبير بإعادة استدعاء وتمثل ظروف وشروط ميلاده الأول، فلن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، أو كما يقول الإمام مالك رحمه الله.

ذلك أن استقراء الشهود الحضاري، أو استقراء النهوض الحضاري على مستوى الذات (والآخر) بشكل موضوعي ومنهجي، يؤكد أن فترات التألق والنهوض والإبداع وامتلاك القدرة على التجاوز والإقلاع إنما تمت عند امتلاك القدرة على إعادة بناء المنطلقات، وتوفير الظروف والشروط الملائمة لامتدادها وتجسيدها في واقع الحال.. وفي تاريخنا الحضاري، على تقلباته المتعددة، وتضاريسه المختلفة نبصر هذه المعادلة، بما لا يدع مجالاً للشك.. إن فترات التألق والإبداع والنهوض إنما بدأت بتصويب المنطلقات وإصلاح الخلل.

فالعطاء الحضاري أو الإنجاز الحضاري، على الأصعدة المتعددة، إنما هو التجلي الكلي والأساس لثقافة الأمة ورؤيتها للكون والحياة.. أو بعبارة أخرى، إن عالم الأشياء مدين في وجوده وصموده وامتداده إلى التزود من عالم الأفكار، وإن نمو عالم الأفكار وسلامته وتقبله وانتشاره مشروط بقدرته على ترجمة القيم واستحضار المرجعيات وتجسيدها في واقع الناس، من خلال الإمكانات المتاحة والظروف المحيطة وامتلاك الخصوبة والقدرة على إبداع أوعية التعامل معها، وامتلاك القدرة على تجريدها من ظروف الزمان والمكان والأشخاص، والقدرة على توليدها في كل زمان ومكان وتجمع بشري، بحسب إمكاناته وظروفه.

ومن هنا نقول، وفي ضوء الاستقراء الحضاري للمعادلات الاجتماعية ومشاريع النهوض التاريخية على مستوى الذات والآخر: إنه لا يمكن بحال من الأحوال بناء حضارة أو إقامة ثقافة وبناء عالم أفكار على أصول ثقافية وحضارية لثقافة وحضارة أخرى، ولعل ذلك أصبح من المسلمات الثقافية، بعد رحلة الضلال الطويلة.. وهذا لا يعني الانغلاق والحيلولة دون التبادل المعرفي والمثاقفة والتلاقح (القبول بالآخر)، وإنما ينفي الارتماء وإلغاء الذات وفقدان المعايير.

إن ترجمة القيم والمبادئ إلى برامج، وإيجاد أوعية شرعية لحركة

المجتمع، وتوفر المعارف والتخصصات والأدوات التي تمكن من التعامل معها، وتجريدها من ظروف الزمان والمكان والأشخاص، وإعادة توليدها في واقع الحياة، قضية تعتبر من أعلى أنواع الاجتهاد وأشقها.. وهي بطبيعتها خارجة عن نطاق الأماني والرغبات.. وهي بحاجة إلى الكثير من المدارسة والمراجعة والتقويم والتصويب والإفادة من التجربة التاريخية، على مستوى الذات و(الآخر).

والاجتهاد المطلوب لتطوير الذات وإعادة بنائها، مطلوب بالقدر نفسه لكيفية التعامل مع (الآخر)، واكتشاف المواقع والمداخل التي تمكن من الشهود والمساهمة بالرحلة الحضارية الإنسانية، والمساهمة أيضًا بمعالجة أزمة الحضارة، ذلك أن الادعاء بالحضور والشهود الحضاري بدون الاجتهاد في إبداع الوسائل والأدوات والأوعية لتنزيل القيم على الواقع، واختبار هذا التنزيل، هو نوع من تكريس التخلف وفسح المجال لتمدد (الآخر)، وإجهاض للقيم، وفقدان الثقة بقدرتها على إعادة البناء واستئناف النهوض.

إن عملية الشهود الحضاري، والقيام بالدور المطلوب على مستوى الحضارة الإنسانية، وامتلاك القدرة على تنزيل القيم في الكتاب والسنة على واقع الناس، وتقويم سلوكهم ومجتمعاتهم بها، وإبداع البرامج والأوعية لحركة الحياة، من خلال منطلقات إسلامية، واستيعاب التجربة

الحضارية التاريخية والإحاطة بعلم مرحلة السيرة وخير القرون، محل القدوة والتأسي، وتحديد الموقع المناسب لواقع الحياة اليوم من مسيرة السيرة، ليتم الاقتداء المناسب، ويؤتي ثماره بعيداً عن الحماس والادعاء، يتطلب أول ما يتطلب الشهود على الذات، أو الشهادة على الذات، أو الوعي بالذات، وإعادة المعايرة لها، والشهادة عليها، وتقويمها بقيم الكتاب والسنة، وتحديد مواطن الإصابة والخلل الذي لحق بها، والتعرف على أسبابه والسنن الذي تحكمه، وعدم الاكتفاء بالشكوى والتبرم وملاحظة الأثر والعرض، ومن ثم تحديد الاستطاعة أو تحديد الممكن أو المستطاع، بالمصطلح الشرعي، في هذه المرحلة.

وذلك لأن تجاهل الاستطاعة المتاحة والظروف المحيطة يؤدي إلى خلل في أدوات البحث والمعالجة نفسها، وينزل القيم في الكتاب والسنة على غير محالها، ويقود إلى سوء التقدير، فتحدث الفوضى والإرباك، ويستمر الوهن والإنهاك الحضاري، وتفتقد الثقة بالقيم نفسها، ويحدث نوع من التطاول وأحلام اليقظة، أو (الطوباوية) إن صح التعبير.

إن سوء التقدير للاستطاعة ومعرفة التكليف في ضوء ذلك، لا يتحقق معه استقامة، ولا يفيد من الاستطاعة المتاحة، وتفعيلها، والبناء عليها لبنة بعد أخرى، وإنما يكون سبيلاً إلى تبديد الاستطاعة

المتاحة نفسها، وتضييع الحاضر والمستقبل معًا، وترك ما نملكه، والتطلع إلى ما يملكنا، وبذلك يستمر العجز والتخاذل الثقافي والحضاري، فنلجأ إلى التاريخ لنحتمي به، لا لنعتبر به ونغترف منه ونبصر قوانينه وسننه.. نلجأ إلى التاريخ لنغطي مركب النقص، فنعيش غربة الزمان والمكان، ونحاصر القيم الإسلامية، ونكرس شُبه الأعداء بتاريخيتها وعدم خلودها وقدرتها على الإنتاج في كل زمان ومكان.

وقد يكون الوجه الآخر لسوء تقدير الاستطاعة والظروف المحيطة، التي تعتبر جزءاً من تقديرها، وإدراك حدود التكليف في ضوء ذلك – الأمر الذي أدى ولا يزال إلى القيام بمجازفات غير محسوبة، والتطلع إلى تكاليف فوق الطاقة، بحيث تضيع الطاقة، ويضيع ما فوقها، ونعود بالخسران المبين على الذات – قد يكون الوجه الآخر للإشكالية كامنًا أيضًا في سوء التخطيط لدور الاستطاعة نفسها، والعجز عن حسن توظيفها وإدارتها، واغتنامها، ووضعها في الموقع المناسب والفاعل.

إن سوء التخطيط يؤدي إلى التحرك تحت رايات عُمِّيَّة، وذلك عندما يمتلك (الآخر) أو العدو القدرة على تحريك استطاعاتنا وتوظيفها واستغلالها في معاركه وتصفية حساباته في الأوقات المناسبة، والإفادة منها لصالحه، بحيث نتحول مع استطاعاتنا إلى أدوات مسخرة (للآخر) ورصيد جاهز لدخول معاركه، دون أن تكون

لنا القدرة والإرادة والبصيرة على الإفادة من استطاعاتنا والتخطيط لها لتحقيق الأهداف الإسلامية الممكنة التي تقع في حدود تكليفنا.

وكم من الطاقات الإسلامية والتضحيات الإسلامية هدرت ووظفت لصالح العدو في أكثر من موقع، وكانت عواقبها وآثارها خطيرة على أصحابها، الذين صاروا أولى ضحاياها، فتحولوا من رموز للتضحيات المقدورة إلى أشلاء من الضحايا المحزنة التي تعاني من المطاردة والإحباط.

وما أمر تجربة الجهاد الإسلامي في أفغانستان، والصورة التي بدأ فيها والحال التي انتهى إليها، ومن قبله معظم ثورات التحرير التي بدأت إسلامية جهادية ومن ثم انتهت تطارد الإسلام ثقافة وحضارة وحركة، وتشكل رصيداً لصالح العدو، عنا ببعيد.

كما أنه ليس بعيداً عنا أيضًا استدعاء الإسلام في فترات الأزمات ليقدم التضحية ويشكل السلاح الفاعل والدرع الواقي في المواجهة، فإذا ما انتهت الأزمة عاد الإسلام ليكون أول الضحايا!

ونعاود القول: إن الانكفاء التاريخي سوف لا يحقق إلا مجرد الإبقاء على النسب الحضاري والتراثي لهذه الأمة، ذلك أن الالتجاء السليم إلى التاريخ يزود الأمة بالطاقة والبصيرة والعبرة، والاهتداء إلى قوانين الحركة التاريخية أو السنن التي تحكم الحياة والأحياء، وتمكن للعودة المكينة، واستئناف الشهود، بأدوات دقيقة وسليمة ومختبرة تاريخياً.

وقد يُقابل هذا الانكفاء على الذات والالتجاء السلبي إلى التاريخ لمعالجة مركب النقص، أو الحيلولة دون الاقتلاع، عندما لم ينتج شيئًا ولم يغير ساكنًا ولم يحدث حراكًا ثقافيًا واجتماعيًا، قد يُقابل بلون من الانتحار الحضاري وذلك بالارتماء على (الآخر)، وإعدام الذات، وتجاوز السنن الحضارية والمعادلات الاجتماعية، والتوهم أن نهوض حضارة أو نهوض مجتمع يمكن أن يقوم على أصول حضارية ومعادلات اجتماعية غريبة عنه.

إن الوعي بالذات، والعكوف عليها، وتحديد إصاباتها، ووضع البرامج والخطط لانتشالها، وإعادة إخراجها لمعاودة الشهود واستئناف الدور للانتقال من الشهود الذاتي إلى الشهود الإنساني في ضوء قيم ومعايير الكتاب والسنة، هو الخطوة الأولى على طريق الشهود الحضاري والقيام بأمانة الاستخلاف والعمران وإلحاق الرحمة بالعالمين، الغاية التي من أجلها جاءت الشريعة.

وما لم نتحقق بالشهود على الذات، حقيقة لا ادعاءً، فسوف نستمر في طحن الماء والحراثة في البحر، والمراوحة في أمكنتنا، وإجهاد أنفسنا بلا طائل.

وكون وسائلنا ومشاريعنا وشعاراتنا ورياداتنا وادعاءاتنا السائدة

والشائعة لم تنتج إنجازاً، فإن ذلك يعني أن هناك خللاً، وأن باطلاً يصارع باطلاً، أو أننا نتعامل بوسائل معطوبة، أو مناهج قاصرة، أو رؤى حالمة، أو إخلاصًا يفتقر إلى الصواب على أحسن الأحوال.. إن ذلك يقتضي إعادة النظر، وإعادة الفحص والاختبار، مهما تذرعنا بالظروف وشراسة العدو، وحتى في حالات الهروب الكاملة التي تنتابنا في إلقاء التبعية على القدر، لأن ذلك يعني، على أحسن الأحوال، أننا دون سوية المرحلة والتعامل مع الظروف وحسن توظيف الاستطاعات، فنلغي ذاتنا دون أن ندري.

وعندما نلقي بالتبعة على القدر ونتحول إلى جبريين، بمعنى الانتهاء إلى قناعة سلب الإرادة والعجز عن الاختيار، فإن إيماننا وتعاملنا مع قيمنا في الكتاب والسنة وفترة التجسيد في واقع الناس، فيه الكثير من المجافاة للحق والواقع والسيرة والتاريخ وخصائص خير القرون.. فليس المؤمن، في الرؤية الإسلامية، هو الذي يستسلم للقدر، وإنما المؤمن الحق هو الذي يغالب القدر بقدرٍ أحبّ إلى الله، فالأقدار هي السنن التي شرعها الله.. وتعبدنا في هذه الحياة بمدافعة قدر بقدر.

إن المنهج الإسلامي أو المنهج القرآني هو منهج تقويم وتصويب وشهود على الذات قبل (الآخر)، في كل الحالات والأحوال، حتى حالات بناء الأنموذج، التي مثلها كرام الخلق من الصحابة رضوان الله

عليهم.. ففي بدر مثلاً، وهي معركة الفرقان، والبدريون، وهم خلاصة الخلق المؤمن - «**إن الله عز وجل اطلع على أهل بدر فقال: افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم**» (أخرجه أبو داود)- عندما اختلفوا كبشر في قسمة الغنائم، وفسدت ذات بينهم، وكادت تسوء أخلاقهم، نزع الله أمر قسمتها منهم، وأعاد بناء ذات البين، وبناء الخصائص والصفات التي يجب أن يتحلى بها المؤمن، فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ (الأنفال: ٢).. وعندما توهموا أن النصر كان بسبب إقدامهم وشجاعتهم قال الله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ (الأنفال: ١٧)، ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ (الأنفال: ١٧)، ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ (الأنفال: ١٠).

لقد أعاد القرآن بناء الذات وتصويب الشهادة عليها، لتكون مؤهلة لحمل الأمانة وتحقيق الشهود الحضاري المستقبلي.

وعندما هُزم المسلمون في أحد، وعلا الكفر واهتزت النفوس، وتشكك بعض المسلمين - وهم من الصحابة- وعندما أُشيع خبر وفاة الرسول ﷺ فانقلب بعضهم على أعقابه، جاء القرآن بمساحات تعبيرية هائلة لبيان الخلل، وتحديد الإصابة، والدخول إلى بواطن النفس، ونشر

ما داخلها، واختبار النوايا، وبيان أن بعضهم كان يريد الدنيا:

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾

(آل عمران: ١٥٢)... والآيات في ذلك كثيرة لا يتسع المجال لإيرادها.

لقد جاء القرآن ليعيد بناء الإخلاص (النية) وتنقيته من الشوائب، ويعيد بناء الصواب (الفعل) وتخليصه من المجازفة والارتجال.

وكان لابد من إعادة بناء الذات بجرأة وشجاعة، والشهود عليها، وتقويمها بقيم الكتاب والسنة، لتكون مؤهلة للشهود على (الآخر).

وفي تقديري أن إشكالات أو إشكاليات بناء الذات، وإعادة تقويمها ومراجعة واقعها، ونقد الحال التي هي عليها، ونقض الباطل، والاجتهاد في تحديد الإصابات ومواطن الخلل والأسباب، تعود إلى حد بعيد إلى اضطراب فهم القيم وكيفية التعامل معها، والتلبس والخلط بين الذات والقيمة، بين نصوص الدين الإلهي المعصوم وصور التدين البشري التي يجري عليها الخطأ والصواب.

ذلك أن التلبس بين قيم الدين المنزل المعصوم وبين صور التدين

البشري التي يجري عليها الخطأ والصواب والنقص، يعتبر إشكالية خطيرة من إشكاليات الوعي بالذات وإعادة البناء، وتقويمها بقيم الدين، والانطلاق بعمليات النقد والتقويم والمراجعة.. وقد تقود صور التدين أو علل التدين إلى ممارسة أشكال من عمليات التحريف والمغالاة والانتحال باسم الدين، فيصبح التدين والفهم البشري والاجتهاد هو الدين المعصوم، وبالتالي تحاط صور التدين بأقدار من القدسية، وادعاء العصمة، وتحاط بنماذج من الإرهاب الفكري الديني تشل الفاعلية وتطارد عمليات التقويم والمراجعة والمثاقفة والنقد والنقض، وتتوضع الأخطاء التي هي من طبيعة البشر، وتختل الموازين والمعايير، ويصبح الرجال وصور تدينهم واجتهاداتهم هم المعيار للحق ولمعرفته، ويصبح أي نقد لهم ولممارساتهم واجتهاداتهم، الذي هو في الأصل لصالح الدين ونصوصه المعصومة، نقداً لقيم الدين نفسه، فتتكرس الأخطاء، وتتعطل الملكات، ويُقتل الإبداع، ويغيب الشهود على الذات، وتختلط الأمور، وتُحاصر قيم الدين، ويُحال دون قدرتها على الإبداع والإنتاج لكل عصر، بحسب مشكلاته، ويصبح الإنسان هو المعيار وهو محل المعايرة في الوقت نفسه.

ولقد حذر القرآن من علل التدين وصور التدين المغشوش حتى لا تتسرب لأمة الرسالة الخاتمة، وذلك عندما تتحول العصمة من القيم

إلى الذات، وتتلبس الذات بالقيم والقيم بالذات، وتؤّل النصوص لتسوغ الممارسة، ويصبح لكل إنسان كتاب وسنة.

ولقد حذر تعالى من علل تدين الأمم السابقة، لتكون الأمة المسلمة متحققة بالشهود الحضاري التاريخي فقال: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (التوبة: ٣١)، وقال: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ (التوبة: ٣٤).

ولعل من الأمور المطلوبة لوعي الذات وإعادة بنائها وتحققها بمؤهلات الشهود أو ممارسة شهود الرسول ﷺ عليها لتصبح مؤهلة للشهادة على الناس، ﴿ لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة: ١٤٣)، أن نتجاوز الرؤية النصفية من الاقتصار في بذل الجهود على إثبات النص وما يتطلب ذلك من الجهود الفكرية والتوثيق وضبط مناهج النقل ومعايير الجرح والتعديل، وأنشطة التحقيق العلمية في المعاهد والجامعات، وما استدعى ذلك من الكلام عن صحة النص وعظمته وخلوده، إلى استكمال الرؤية في الاجتهاد وبذل الجهد، ووضع المناهج والضوابط، لكيفية إعمال النص وتنزيله على الواقع.

صحيح بأن بذل الجهود في حفظ النص ونقله تبقى على غاية من الأهمية، لأنها تحتفظ بالإمكان الحضاري، وتشكل المحور الأساس لحركة الحياة، لكن الاقتصار على ذلك دون التفكير بكيفيات التنزيل وتقويم المجتمع بقيم النص أو بالنص يفقد النص قيمته العملية، ويعطل وظيفته، ويصبح الحفظ والنقل عملية سلبية خارج حركة الحياة.

لقد تحدثنا كثيراً ولا نزال عن عظمة الإسلام، وصوابية النص وخلوده، وتجربته التاريخية، ومرونته، وتميزه، وقدرته على معالجة مشكلات الحياة في كل زمان ومكان، وقابليته للتطبيق، حتى يكاد ذلك يستغرق أدبيات العمل الإسلامي، أما البحث والدرس والاجتهاد وتقديم البحوث والرسائل الجامعية وتوجيه جهود الباحثين إلى كيفية التنزيل على الواقع، ونصيب الواقع الإسلامي من هذا النص، ومعاودة تقويم واقع المجتمعات بقيم الكتاب والسنة، بحيث ينظر إلى القيم من خلال الواقع، وينظر إلى الواقع من خلال القيم، فواقع محزن.

ولن يتغير هذا الواقع المحزن مالم نجتهد في إيجاد الأدوات الصحيحة لاختبار صور التدين، وإعادة معايرتها، وممارسة الاجتهاد والتجديد، أو بمعنى آخر التحول بالأقدار الكافية من الكلام عن عظمة الإسلام إلى دراسة واقع المسلمين وأسباب عدم تحققهم بهذه العظمة، ووضع المناهج والبرامج والأوعية لبناء صور للتدين تكون في مستوى

الدين والعصر، وإتاحة الفرصة لنقد الواقع وصور التدين التي هو عليها، والاجتهاد في اختبار صور التدين وتحديد أسباب الخلل بين عظمة الدين وخيبة المسلمين، وبذلك يتحقق الوعي بالذات، وتصوب مسيرتها في ضوء قيم الدين الخالدة، وتتأهل بعد تصويب الشهادة عليها من الكتاب والسنة لتكون شهيدة على الناس.

ولعل من آثار ذلك ومظاهره أيضًا المباهاة بإنجاز القرن الأول، المشهود له بالخيرية من الرسول ﷺ بقوله: «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**...» (أخرجه البخاري).. تلك الخيرية المفترض لها أن تحقق المقاربة، وأن تثير الاقتداء، وتغري به، على الأصعدة المتعددة، فقول الرسول ﷺ: «**خير الناس**...» يعني فيما يعني -إضافة إلى الشهادة النبوية لفهم خير القرون وتنزيلها على الواقع- أن هذا الفهم للقيم من الأمور المرجعية.

وحتى يتحقق الاقتداء بالشكل المناسب، فإن الأمر يتطلب، بالنسبة للأجيال المسلمة في كل عصر، الاجتهاد في محاولة تحديد مجموعة الخصائص والصفات التي بها كانت تلك الخيرية، ووضع المناهج التربوية والإعلامية والثقافية التي تمكن من التحلي بها، والمقاربة منها ولها.

إن قول الرسول ﷺ -فيما نرى- لا يحمل الإخبار فقط عن

ذلك، فالإخبار على أهميته بشهادة الرسول ﷺ لهذا الجيل، إلا أنه يبقى عن جيل ماض لا سبيل للوصول إليه والانسلاك في إطاره من حيث الزمان والمكان، وإنما يحمل كلام الرسولﷺ أيضًا أبعاداً تكليفية لابد من التفكير بكيفية تحقيقها أو مقاربتها على مدى الأجيال، وذلك بتجريد تلك الصفات من قيد الزمان والمكان والأشخاص، ومحاولة توليدها في كل زمان ومكان عن طريق وسائل التربية والتعليم، والتوجيه، والإرشاد، والإعلام، والتثقيف، وتأطير الفهم بعطاء المشهود لهم بتلك الخيرية والهدى من المعصوم.

أما الاقتصار في القراءة لسيرة خير القرون لمجرد الاحتماء بها ومعالجة مركب النقص وتغطية العجز دون القدرة على التحلي والتمثل ودراسة مدى تحقيق هذه الخيرية في الأجيال المستمرة، فتلك المعادلة التي ما تزال بانتظار الحل.. فالجيل عظيم، وصاحب إنجاز متألق وإبداع وبناء حضاري، وأنموذج متفرد... وهذا قد لا يحتاج منا للشهادة له بعد شهادة المعصوم بالخيرية والهداية من الله، وإنما نحن الذين نحتاج للتأهل بخصائص وصفات ذلك الجيل، حتى نتحقق بالشهود على الذات، وتصويب خطواتها، وترميم إصاباتها، وتقويمها بتلك الخصائص والصفات، لتصبح في مستوى الشهادة على نفسها، وقادرة على الشهادة على الناس: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ (البقرة:١٤٣).

فطالما نحن مفتقرون للشهادة علىٰ الذات ومعايرتها بالقيم في الكتاب والسنة وخصائص خير القرون، فسنبقى عاجزين عن الشهادة الحضارية على الناس.

وقد يكون من البدهيات القول: بأن إعادة بناء الذات، وتأهيلها، باسترداد مقومات الشهادة على الذات لتصبح قادرة وقائمة بالشهادة على (الآخر)، أو ممارسة مهمة الشهود الحضاري، لا يتحقق بالرغبات والأمنيات وبمزيد من الحماس والتوثب والحشد والخطب، وإنما لابد له من توفير التخصصات في المجالات المعرفية المتنوعة والمتعددة، وإبداع المناهج والبرامج الدقيقة، واختيار أدوات البحث، وتقويم النتائج وقياسها، واكتشاف مواطن الخلل ومعالجتها بجرأة وشجاعة.

ذلك أن عمليات النقد والتقويم والمراجعة من المهام الوظيفية الكبرى لتحقيق الشهادة على الذات وسلامة مسيرتها، والقيام بواجبات الشهود الحضاري، فأهل الذكر في كل قضية هم المتخصصون بها، المحيطون بعلمها: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ (الفرقان: ٥٩)، وأن غير المتخصص عاجز عن تقديم الشهادة وإدراك أبعادها ورؤية متطلباتها، عاجز عن تحملها، عاجز عن أدائها معًا. وأهل الحل والعقد هم أهل الاختصاص الذين يمتلكون الرؤية الشرعية، أو المرجعية الشرعية، التي تفيد من الاختصاص وتوجهه صوب أهدافه.

فلا نستطيع تحقيق الشهود الحضاري، لا على أنفسنا ولا على (الآخر)، إذا كان الكثير من شعب المعرفة التي يتطلبها بناء المجتمع وشهوده، وتقتضيها وظائفه غائبة ومؤذنة بتمدد (الآخر).

وفي اعتقادي أن الإصابة في هذا الموضوع بالغة ومتجذرة وخطيرة، وتحتاج إلى جهود لفك الأطواق من التقاليد المحكمة على الرقبة، والعزم على اقتحام هذه العقبة، حيث المتحمسون وغير المتخصصين بين المتدينين يفتون بما لا يحيطون بعلمه، ويقتحمون مجالات لا خبرة ولا اختصاص ولا همَّ لهم بها.. والمتخصصون من كثير من المسلمين في بعض شعب المعرفة ما يزالون عاجزين عن إدراك الرؤية الإسلامية للاختصاص وأهمية تكامل الاختصاصات في تحقيق الشهود على الذات، فيغادرون مساحات ومجالات الاختصاص إلى منابر الوعظ والإرشاد، فيدعون ما يحسنون إلى ما لا يحسنون، ونفصل بذلك الدين عن مجالات الحياة عمليًا، أو نفصل الحياة عن قيم الدين، رغم أننا ندعي غير ذلك، وتستمر حالة الاستنقاع الحضاري، ويستمر تمدد (الآخر) في المجالات والوظائف التي يتطلبها المجتمع المدني، وبعد ذلك ندعي بأننا الشهداء على الناس، رغم الافتقار لمقتضيات الشهادة: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدًا﴾ (البقرة:١٤٣).

وقد تكون المشكلة التي تكمن وراء الكثير من المجازفات والمفارقات، عدم الإدراك الكامل لحدود التكليف في كل مرحلة وحالة، وإمكانيته، الأمر الذي يؤدي إلى العبث بالأحكام والتكاليف الشرعية، وتنزيلها على غير محالها.

والسبب الأساس في ذلك -في نظري على الأقل- هو الاقتصار بالاجتهاد على فهم النص، وغياب الاجتهاد في محل التنزيل، وإلى أي مدى تتوفر الشروط المطلوبة في المحل أو الاستطاعة المطلوبة لتنزيل الحكم، والله يقول: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا ﴾ (البقرة:٢٨٦)، ويقول: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ ﴾(التغابن:١٦)، حتى يكون التكليف في حدود الاستطاعة، وهو ما اصطلحنا على تسميته «فقه الواقع»، الذي هو فقه المحل، وعدم الاقتصار على فقه النص.. وهذه الثنائية بين فقه النص وفقه الواقع، أو المحل، هي في واقع الحال ثنائية فنية لتسهيل الإدراك للموضوع، ذلك أن الحقيقة أن من مقتضيات فقه النص فقه المحل ولافقه لنص دون فقهٍ لمحله.

إن التكليف إذا انعدمت الاستطاعة المطلوبة له، لا يَرِد على الإنسان ابتداءً، وهذا طبيعي في شرع الخالق. فإذا توافرت درجات

أعلى من الاستطاعة علا التكليف، وإذا ضعفت أو تراجعت اقتضت من التكليف ما يناسبها.

إن عدم إدراك هذه الحقيقة البدهية التي أدركها الكثير من فقهائنا الأعلام يعتبر من الإشكاليات الكبيرة التي أعاقت ولا تزال تطبيق الشريعة حتى اعتبر أن غير المستطيع غير مكلف، ولا ترد التكاليف في حقه أصلاً.

ومن هنا ندرك أن التخلف، كعملية متراكبة ومتداخلة، لا يقتصر على أن يضعنا دون سوية عصرنا ويؤدي إلى عجزنا عن الشهود الحضاري، وإنما يضعنا أيضًا دون سوية ميراثنا الثقافي والفقهي.

إن العبث بالأحكام الشرعية وتنزيلها على غير محالها تحت شعارات الحماس والحرص على تطبيق الشريعة، لا شك أنه يؤدي إلى إهدار الطاقات، والقيام بمجازفات، والإقدام على أعمال غير محسوبة بدقة، ويعود في النهاية أو المحصلة النهائية، على إجهاض أداء القيم، والتوهم بأن الأزمة أزمة قيم وتجربة حضارية وأطر مرجعية، والحقيقة أن الأزمة أزمة تعامل، وفقه تنزيل، وغياب اختصاص، وفقدان مقومات الشهود.

وهذا العبث بالأحكام الشرعية وتنزيلها على غير محالها، وعدم فقه المحل، وتوفير الاستطاعات لتتوازى مع التكاليف، وتوفير

الاطمئنان النفسي،أدى إلى كثير من القلق والاضطراب والتطاول إلى ما لا نستطيع على حساب ما نستطيع، ذلك أن المسلم إذا استفرغ وسعه وبذل استطاعته في التكاليف الشرعية المناسبة لها، فقد طبق الإسلام المكلف به في حاله التي هو عليها ولو لم يستكمل جميع تكاليف الشريعة.

إن غياب فقه الاستطاعة، أو غياب فقه المحل، وعدم إدراك مواصفات الخطاب القرآني بحسب محاله، أدى إلى لون من العجز عن التعامل مع القرآن، والفوضى في إدراك خطابه، ذلك أن من المعروف أن الخطاب القرآني متنوع الأغراض، متعدد المجالات، ولكل حالة ومجال خطابه الملائم له: فخطاب المعركة غير خطاب الحوار، وخطاب الدعوة غير خطاب الدولة، وخطاب النصر غير خطاب الهزيمة، وخطاب العقيدة غير خطاب المعاملة الاجتماعية.

لذلك نقول: إن الفوضى في التنزيل، وقراءة الخطاب القرآني والاستشهاد به في غير محاله، أدى إلى الكثير من الضياع والبلبلة الفكرية، والكوارث الاجتماعية، والإحباطات والأزمات النفسية، كما أدى إلى العجز عن الشهود الذاتي والشهود على (الآخر)، أو الشهود الحضاري بشكل عام.

وعلى الجملة يمكن القول: بأن الإشكالية الأساس في تحقيق

الشهود على الذات، الذي يؤهل للشهود على (الآخر)، هي تلبس الذات بالقيم، والخلط بين الدين والتدين، والتجريم والتأثيم والإرهاب الفكري لكل من ينتقد صور التدين، على اعتبار أن هذا النقد وهذه المراجعة والتقويم إنما تنال من قيم الدين المعصوم (!) فاستمر التشوه، وتكرس الكثير من التدين المغشوش، وحلت اجتهادات البشر محل قيم الدين المعصومة الخالدة.

ولعل من مقومات الشهود ومستلزماته، إلى جانب الوعي بالذات وتحقيق الشهود الذاتي وتقويم ذلك بقيم الكتاب والسنة، الوعي (بالآخر)، محل الشهود، والشريك في الشهود والبناء الحضاري.

وفي تقديرنا، أن الوعي (بالآخر) يتطلب فيما يتطلب المعرفة بعقيدته، وعالم أفكاره، كما يتطلب المعرفة بتاريخه الطويل، أو نصيب هذا التاريخ والفعل البشري من عقيدته وعالم أفكاره، ومن ثم إدراك حاضره وموقع هذا الحاضر من عقيدته وتاريخه، حيث لابد من هذا الوعي لتحديد القواسم المشتركة، وتحديد المداخل الحقيقية لكيفية التعامل معه على بصيرة، وتحقيق الشهود الحضاري المطلوب.

ونحب أن نؤكد هنا أمراً ما يزال غائباً عن كثير من العاملين في المجال الإسلامي: أن (الآخر) موجود من الناحية العملية والواقعية، وأنه محل الدعوة، وأحد أطراف الحوار والجدال، وأحد ميادين سنن

المدافعة، واستمرار التاريخ البشري، ولذلك خلقنا الله: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ (هود: ١١٨-١١٩).

إن الاعتراف (بالآخر) ومعرفته لا يعني إقراره على ماهو عليه، وهذه إشكالية بعض الذهنيات الإسلامية، حيث يقع الخلط بين الاعتراف (بالآخر) وبين الإقرار بصحة عقيدته ودينه، ذلك أن الله لم يخلق الخلق نسخًا مكررة عن بعضهم، ولو كان ذلك كذلك لانتهى التاريخ، وتوقفت سنن المدافعة، التي تأذن بامتداد الحياة واستمرار الضرب بين الحق والباطل: ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ﴾ (الرعد: ١٧).

وقد لا نكون بحاجة إلى التأكيد على أن القرآن أفرد مساحات تعبيرية هائلة للحديث عن (الآخر)، عقيدته، وعباداته، وعاداته، وتاريخه، وعلل تدينه، وأسباب سقوطه، إلى درجة يمكن أن نقول معها: إن القرآن يمكن أن يعتبر من بعض الوجوه كتابًا في التاريخ الحضاري، أو في الشهود الحضاري الإنساني، حيث عرض للحضارات الإنسانية كمختبر للفعل الإنساني، والسنن والقوانين الاجتماعية التي حكمت سقوطها، وتحديد أسباب السقوط، واستخدم ذلك وسيلة إيضاح لبيان أسباب السقوط والنهوض،لتكون الأمة المسلمة،

أمّ الرسالة الخاتمة الشاهدة على الناس، على بينة من الأمر، فلا تنتقل إليها علل التدين وأسباب السقوط، يقول تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٧-١٣٨).

وقال تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ (إبراهيم: ٤٥)

إن هذا المسح الحضاري، وهذا الشهود التاريخي الحضاري، الذي يقدمه القرآن للأمة الشاهدة على الناس، وهذا الوعي (بالآخر)، ومعرفة الخارطة الحضارية والفكرية والأنماط الحياتية التي لابد أن يبصرها المسلم ليؤدي دوره في الشهادة والقيادة وإلحاق الرحمة بالناس على بصيرة، هو جزء لا يتجزأ من بناء الوعي بالذات.

إن الوعي بالذات، والشهادة عليها، وتأهيلها لشهادة الرسول ﷺ عليها لا يكتمل إلا بالوعي (بالآخر): ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣)

والوعي (بالآخر) يمكّن -كما أسلفنا- من تحديد المشترك الإنساني، ويبيّن مواطن الخلل، ويحدد المداخل التي تمكّن من الشهادة

عليه، وإيصال الخير له، وتجنب الإصابات التي لحقت به.

والشهود الحضاري سواء أكان على الذات أو على (الآخر)، يتطلب قيمًا ومبادئ ومعايير ثابتة، واضحة ومنضبطة وواقعية، بعيدة عن الهوى وجموح الخيال، وليست من وضع الإنسان حتى لا يصبح الإنسان المعيار ومحل المعايرة في الوقت نفسه، وخالدة مجردة عن حدود الزمان والمكان، مرنة، قادرة على التنزل والتوليد والمعايرة في كل زمان ومكان.

وغني عن البيان القول: بأن القرآن معيار وشاهد على الكتب السابقة، على (الآخر)، لأن أصول الكتب والرسالات انتهت إليه، فجاء مهيمنًا عليها، قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا ﴾ (المائدة: ٤٨).

والهيمنة هي الرقابة والشهادة المبيِّنة لما هو الصواب في الأصل، وما ناله التحريف والتبديل.. والشهادة هي الإمكانية والقدرة، ومعيار النظر، والبيان للعلل والإصابات.. والرسول ﷺ شاهد بما نيط به من البيان والتصويب.. والأمة المسلمة شاهدة على الناس بما تحمل من قيم معيارية وحضارية تمثل منهاج التوسط والاعتدال، تمكنها من الحكم على الذات وعلى (الآخر).

فالقرآن معيار، والسنة بيان القرآن معيار، والسيرة التطبيقية معيار، والأمة المسلمة معيار، والحضارة الوسط معيار.

فقيم الكتاب والسنة هما معايير الشهود.. والشريعة المستنبطة منهما معيار الشرائع.. والأمة المتمثلة بهما معيار الأمم.. والحضارة الناتجة عنهما معيار الحضارات.. وهكذا يتحقق الشهود، بوعي الذات وتصويب مسيرتها، ووعي (الآخر) وشهوده الحضاري، فضلاً عن وعي معايير الشهود في الكتاب والسنة والسيرة العملية.. أما إذا فُقد المعيار، فإن الأمة تتحول من حال الشاهد إلى واقع المشهود.

وبعد،

فالكتاب الذي نقدمه، بما اضطلع به من محاولة جادة لمسح الفكر الحضاري، يساهم إلى حد بعيد بتقديم رؤية للملف الحضاري، ذلك أن الملف الحضاري، أو ملف الشهود الحضاري، التاريخي والمعاصر بشكل عام، أصبح يشكل أولوية في مجال الدراسات الإنسانية والحضارية، وعلى الأخص عصر العولمة وتحوّل المواجهات من الميدان العسكري إلى الميادين الحضارية والثقافية، والتحول من قوة العضلة والساعد إلى قوة العقل والمعلومة التي تحاول اليوم احتواء العالم.

إن ملف الشهود الحضاري هو الملف المفتوح باستمرار، على مستوى الذات وعلى مستوى (الآخر)، على حد سواء، بعد تحقق

الوعي بأن الركائز الحضارية المؤهلة للحياة والاستمرار هي عالم الأفكار، ذلك أن عالم الأشياء بكل أبعاده لا يخرج عن أن يكون تجليًا لعالم الأفكار وناقلاً ومجسداً له.

فالغياب الحضاري، الذي يتولد عن عدم وعي الذات ووعي (الآخر) والتحقق بمعايير الشهود الحضاري، يعني الموت والخروج من ساحة الشهود.. كما أن فقدان معايير الشهود يعني السقوط والارتماء الحضاري، أو العمى الحضاري.. إضافة إلى أن عدم وعي (الآخر) يعطل مهمة الشهود وإلحاق الرحمة بالعالمين.

والكتاب، إلى جانب ما يقدمه من مسح للمكتبة الحضارية على مستوى الذات (والآخر) نوعًا ما، يعتبر محاولة لاستقراء عالم الأفكار لمعرفة الذات (والآخر)، يمكن أن تساهم بتشكيل ثقافة حضارية، ويضع لبنة على طريق استرداد الشهود الحضاري للأمة المسلمة، والتدليل على أن الأمة المسلمة، التي هي خلاصة تجارب الأمم الحضارية، بما تمتلك من شهود تاريخي، وشهود الخاتمية، وشهود الوسط، ومعايير خارجة عن وضع الإنسان، مؤهلة لإنقاذ الحضارة الإنسانية اليوم وإلحاق الرحمة بالعالمين.

والحمد لله رب العالمين.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الأمين وآله الطيبين وصحابته المجاهدين، وبعد:

فإن أمتنا تعيش أزمة، والواجب على كل مفكر غيور ومثقف نزيه مخلص أن يدلنا على مكامن الخطأ والتقصير.. فهل هي أزمة سياسية، أم أزمة ثقافية فكرية، أم أزمة قيم وأخلاق، أم أزمة تربية وتعليم، أم هي خليط من كل ذلك؟ وكيف المخرج؟ ابتداءً، لقد مرت أمتنا من العصر الجاهلي إلى اليوم بعدة أحوال ومراحل:

١- مرحلة ما قبل الإسلام، قبائل لا تجمعها دولة ولا نظام، يحارب بعضها بعضًا، ويغير بعضها على بعض، ويتسابق حصان وفرس (داحس والغبراء) فتختلف أيهما سبق، فيكلف ذلك حربًا، تستمر عقودًا من السنين.

٢- جاء الإسلام فوحد الأمة، ودفعها نحو القيادة والريادة، ونشر الإسلام في العالم، فصرنا بفضل الله قادة العالم وسادته، لعدة قرون، لا يستطيع أحد أن يتجاهلنا، ولا يتخطانا، ثم أقمنا صرحًا حضاريًا، لا تزال معالمه ماثلة للعيان، وأنتجنا ثقافة ما زلنا نعتاش عليها.

٣- ثم بدأ العد التنازلي، والبعد عن أساس نهضتنا، فتجمد فكرنا، وتحولنا من المضمون إلى الشكل، ومن القيم والأفكار إلى الأشياء،

ففقدنا القيادة، بل ضيعنا السيادة في بلادنا، فاجتاحنا الكثير من برابرة العالم، ابتداءً من الصليبيين الهمج، إلى المغول البدو، وأخيراً جاء الغرب الاستعماري بأساطيله وجنوده وثقافته، فكانت أكبر ضربة تتلقاها الأمة في حياتها.

وقبل أن يجلو الاستعمار عن الأرض والعقول والقلوب، زرع لغماً كبيراً هو إسرائيل، ومدها بكل وسائل الاستمرار والتفوق، وما يزال يمدها حتى اليوم.

وهنا أستذكر قضيتين، واحدة قديمة وأخرى جديدة:

١- القضية الأولى تقود للعصر العباسي، حيث أوصى المأمون أن يكون الخليفة من بعده «المعتصم»، وليس ولده، ولما كان المعتصم لم يتعلم جيداً، فقد أحاط نفسه بمجموعة من المستشارين على رأسهم «ابن أبي الربيع»، الذي كتب للمعتصم كتاب «سلوك المالك في تدبير الممالك»[1]، وكان الشخص الثاني «إسحاق بن إبراهيم المصعبي»، وقد طلب إليه المعتصم أن يجيب: لماذا نجح المأمون في تعاملاته وخلافته، بينما لم ينجح المعتصم؟

---

(١) وقد قام د. حامد ربيع بتحقيقه، والحصول على شهادة الدكتوراه في العلوم السياسية من جامعة السوربون، وقدم للنص بدراسة ضافية، ربما كانت أفضل دراسة من نوعها، وقد طبع الكتاب عام ١٤٠٠هـ.

لقد خاف المستشار المصعبي من غضب المعتصم، إن هو صارحه السبب، فطلب أن يعفيه من ذلك، لكن المعتصم أصر على رغبته بالحصول على جواب سليم مقنع. هنا قال المصعبي: هل أنا آمن من غضبك؟ فرد المعتصم بالإيجاب.

قال المصعبي بإيجاز: لقد نظر أخوك إلى «أصول» فاستعملها فأنجبت، واستعمل أمير المؤمنين «فروعًا» فلم تنجب شيئاً.. وهنا قال المعتصم: ويحك يا مصعبي، والله إن ما أعانيه أيسر عليّ من جوابك هذا!

هذه «المشورة» عمرها أكثر من ألف عام، مفادها: أن المأمون اعتمد أصولاً لسياسته فأثمرت، والمعتصم اعتمد فروعًا فلم تنتج ولم تنجب.

٢- القضية الثانية: خلال الحرب الكونية الثانية تحالف الألمان واليابان والإيطاليون ضد الغرب بما في ذلك أمريكا، وكانت حربًا قذرة بمعنى الكلمة، خلت من كل رحمة، فدكت المدن، وأزهقت أرواح أكثر من خمسين مليونًا من البشر، وجاع وتشرد الملايين من البشر، ونهبت بلاد ومصانع، وفرضت غرامات، وضربت هيروشيما وناكزاكي بقنابل نووية لأول مرة في التاريخ، وانتهت هذه الحرب بصورة من الدمار لم تعرفه البشرية.

وخلال سنوات حصلت مفارقة غريبة، فقد تقدم المغلوب على

غالبه، وتجاوز المهزوم هزيمته ومن هزمه، فما السر وراء ذلك؟

أحسب أن عالم «الأشياء» دمر ونهب، ولكن الإنسان وفكره بقي، فأقام كيانه مجدداً، وتخطى من هزمه. ولعل من تتمة هذا، الإشارة إلى ما حققته الدول الاشتراكية من إرسال صاروخ إلى الفضاء، قبل أمريكا والغرب، فقامت أمريكا ولم تقعد لهذا السبق، لذا أعادت النظر في مناهج التعليم، من رياض الأطفال وحتى الجامعات، كما فتحت أبوابها لهجرة العلماء، من كل بقاع الأرض، ولم يهدأ لها بال، ولم تسترح حتى أرسلت صاروخاً إلى الفضاء، وكان ذلك عيداً وأي عيد!

والآن أود أن أتساءل: هل الفكر هو العقل، أم العلم، أم الثقافة، أم هو الأحكام والمبادئ، أم حصيلة جمع ذلك كله؟

إن الأفكار هي الضابط لسير المجتمع، والمانع من تراكم الأخطاء، والتآكل والصدأ.

العالم الصناعي اليوم ينشئ مراكز البحث، ويمدها بكل ما تحتاج[1]، فأين مراكز البحث عندنا؟

أخيراً: هل أزمتنا أزمة قيم، أم أزمة فكر؟

---

(١) سمعت من شخص درس في الغرب، سأل عن عدد مراكز البحث في أمريكا فقيل (١٢٠٠)، ثم سأل عن عددها في مدينة أمريكية، ولكن بعد عشرين سنة، فقيل: (٧٠٠٠) مركز، في مدينة واحدة، فكم مركز في أمريكا، وكم مركز للبحث في اليابان مثلاً؟

إن شخصيـة الفرد المسلم تعيش أزمة، ليست بنت اليـوم، لكنها تطاول عليها الزمن فأفرزت إفرازات ضارة، وربما قاتلة.

لقد افتقدت شخصية المسلم منهجيتها، وتراجع شهودها الحضاري، فنتج عجز عن التقويم والمراجعة ومعرفة أسباب التقصير والقصور، وكذلك تحديد أماكن الخلل والخطل، لقد خرجنا بعيداً عن الفعل والفاعلية، وصار التحضر ليس من همومنا، كل ذلك ليس بسبب فقر القيم، ولا المرجعية السليمة، فما زال كتاب الله يتلى، وما زالت سنة رسول الله ﷺ تدرس، وما زال إيمان جمهور الأمة بالإسلام كبير.

ليست مشكلتنا مشكلة قيم، ولا أزمة قيم -كما يحلو لبعض أبنائنا، وكل أعدائنا أن يصورها- وإنما المشكلة -في تصوري المتواضع- في العجز عن التعامل مع القيم، وفرضها على الواقع، أو الملاءمة بين هذه القيم والواقع الحياتي، وهذه مهمة الفكر، ووظيفة الفكر.

هناك جهات داخلية وخارجية، تريد أن تقنعنا بأن أزمتنا في قيمنا ذاتها، وتريد أن تهيل التراب على الإسلام، عقيدة وشريعة وحضارة وثقافة وتراثًا، فإن تعذر، فليكن عقيدة بلا شريعة، وعبادة بلا تشريع. إن انحسارنا الحضاري والثقافي، كان وما يزال أزمة فكر، فقد توقف النسق الفكري للحضارة والثقافة الإسلامية منذ قرون، وصار المعتقد: (لم يترك الأوائل للأواخر شيئًا).

والمطلوب حاليًا أن نحاول بكل جد وإخلاص تحديد الأزمة، ومعرفة آثارها، ثم تحديد مواطن الخطأ والصواب، وكل ذلك وفق منهج يستلهم القيم، لا أن يقفز فوقها أو يهيل التراب عليها، ويستبدل بها قيمًا خارجية لا تمت إلينا بصلة.

هناك قيم عامة للبشر، وهناك قيم لكل حضارة وكل أمة.. قد تعيش الأمة بدون حضارة، لكنها لا تعيش بدون ثقافة وقيم.

ولم يسجل التاريخ اسم أمة نزعت ثقافتها مرة واحدة، كما يخلع الإنسان ملابسه ويغيرها.

الثقافة صانعة الهوية، ومانحة الولاء، والذين يحتقرون ثقافتهم أولئك انسخلوا من الأمة، ولم يبق لهم بها صلة غير «المكان».

وكم في العالم من بشر جسمه في وطنه، وقلبه وعقله يطوف حول أصنام لندن أو باريس أو واشنطن.. جسده هنا، أما عقله وقلبه فهناك، إنه مأزوم مهزوم، حتى سويداء القلب، ونخاع العظم.

ويقول «فرانك أنلو»: «راقب أفكارك فإنها تتحول إلى كلمات.. راقب كلماتك فإنها تصبح أفعالاً.. راقب أفعالك فإنها تتحول إلى عادات.. راقب عاداتك فإنها تصبح طباعًا.. راقب طباعك فإنها ظلال مصيرك...

والله الموفق والمعين.

تمهيد

هناك مفاهيم تطرح هنا وهناك، تبدأ عادة يلفها غموض، ثم مع الأيام تتضح وتتبين، وأحيانًا يصاغ لها الغموض ويراد.

وأحيانًا يدخل التحريف لسبب ما.

فالمفهوم يمكن وصفه أو توصيفه بأنه شيء معرفي جامع، صاحب هوية، وربما تاريخ ميلاد، وشيء من تطور في دلالته، يوسع في دائرته أو يضيق فيها.

والأمر الذي يلمحه المتابع أن دائرة المفاهيم هي ميدان للصراع الفكري الثقافي، قديمًا وحديثًا، ساهمت فيه الأديان والمعارف البشرية.

والصدمات الحضارية، تصيب أول ما تصيب المفاهيم الثقافية، أما الأمراض التي تضربها فتتراوح بين الغموض والميوعة والتيبس.

والأمة -أي أمة- قد تستعير مفاهيم من حضارة أو ثقافة أخرى لتتداولها، ناسية خصوصيتها، خالطة بين المعارف الإنسانية العامة المشتركة كالرياضيات والفيزياء والفلك وعلوم النبات، والعلوم (الملِّية) الخاصة، فهنا يتسرب الغموض، ويحدث الارتباك، وتتعدد المصطلحات والتعابير الدالة على معان واحدة -ظاهريًا- وليست كذلك في الحقيقة، وكأنها مترادفات.

والذين يتابعون الحوار في المؤتمرات، وعلى شبكات التلفزة، يشعرون أكثر من غيرهم بذلك.

فالذين يتحدثون عن الديمقراطية أو العلمانية أو الحداثة، أو ما بعد الحداثة، وحتى الوجودية والماسونية، يستمع لهم المتابع ليجد مصطلحات واحدة وتفسيراً مختلفاً كل الاختلاف، لذا يجب تحديد المصطلحات والمفاهيم أولاً قبل الخوض في الحوار والنقاش.

إن الحوار يفقد معناه، إن لم تحدد المفاهيم بدقة وموضوعية، وأحياناً يصعب النقد إن لم يصبح مستحيلاً، دون تحديد المفاهيم.

وقد يصير عالم «الأفكار» فاقداً المضمون، دون تحديد للمفاهيم، ويتبع ذلك أن الأمة تصاب بنوع من التشوش، فتتحول من عالم الأفكار إلى عالم الأشياء، وبدلاً من معرفة الرجال عن طريق الحقيقة، يصار إلى معرفة الحقيقة عن طريق الرجال، كما أشار إلى ذلك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

العالم، قديمه وحديثه، يشهد تصادماً ثقافياً، فضاؤه الأكبر حول المفاهيم، من هنا يمكنني فهم قول الحق سبحانه وتعالى، وهو يتحدث عن الاستخلاف في الأرض وجدارة الإنسان له: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٣٠).

والقضية ملفتة للنظر، فالله يقول للشيء: ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾، لا راد لأمره، ولا معقب لكلامه، وهو هنا يعرض على الملائكة أمر

الاستخلاف في الأرض، فإذا كشفوا عن تصورهم بأحقيتهم بذلك الاستخلاف، كاشفين عن عيب في هذا المستخلف، أجملوه أولاً بأنه مفسد، ثم أوضحوا: بأنه يسفك الدماء، ثم يأتي الجواب فيه نوع غرابة، إذ لم ينف الحق عن هذا المستخلف هذه التهمة، لكنه بدلاً من ذلك كشف عن مزية، وهي القابلية العالية للتعلم، على حين لا تملك الملائكة هذه القابلية، فينجح آدم في الاختبار.

والأمر الآخر الذي أريد التفكر فيه هو تعليم الله تعالى الأسماء لآدم عليه السلام، وهذا يعني أن هناك معارف قدمها الله تعالى للإنسان، وأخرى تركها ليصل إليها بجده واجتهاده.

وإذن فليس من العقل ولا من المنطق، ولا من المصلحة، أن يترك الإنسان ما قدمه له خالقه، ليشتغل به بعقله المجرد.. وتاريخ الفلسفة قديمًا وحديثًا يخبرنا بذلك التخبط البشري، خصوصًا في الجانب «الميتافيزيقي»، فما يقوله فيلسوف، ينقضه تلميذه، وما تتبناه فلسفة، تنقضه غيرها.

فتعليم الله جدير بأن يُعضّ عليه بالنواجذ، ففي العقائد والعبادة، وفي ذات الله تعالى وصفاته، وما يحدث في اليوم الآخر، لا يجوز بحال أن نستبدل معارف بشرية ناقصة بما قدمه الله تعالى لنا.. وسوف أضرب بعض الأمثلة:

أولها: إن الله تعالى تحدث عن العائلة، فجعلها مشروعة وفق عقد

رضائي بين رجل وامرأة، بشروط معينة، إذ بيّن لنا ما يجوز بينهما -الرجل والمرأة- من زواج وما لايجوز، فإذا جرى العقد وشهد بذلك شهود، ليحفظوا حقوق الكل، وينفوا حصول الزنى، قامت العائلة، هذا في الإسلام.. جاء الغرب اليوم «ليتلاعب» بالعائلة وليقول: لا حاجة للعقد، ولا لإشهار الزواج، ويمكن للرجل والمرأة أن يتعاشرا دون عقد، وينجبا الأولاد، فإن شاء الرجل اعترف بالأولاد، فحملوا اسمه، ونُسبوا إليه، وإلا نسبوا إلى أمهم، وصاروا أولاداً غير شرعيين. ولم يقف الغرب عند هذا الحد، بل أتاح الزواج المثلي كأن يتزوج الرجل رجلاً أيضًا، ورسم لذلك «قسسًا» ينجزون العقد، وهناك مطالبة من قوم «لوط» من اليهود، أن يكون لهم «حاخام» أيضًا.

ومن يدري، فقد يطلع علينا الغرب غداً بتشريع يسمح بأن يتزوج رجل من كلبة، وتتزوج امرأة من كلب أو قرد، أو بغل!!!

هذا التلاعب، خطر وعبث وقد نشرت بعض الصحف الغربية قضية وناقشتها، ملخصها: أن رجلين من قوم «لوط» خلطا «منيهما» وأخذا بيضة من امرأة، ثم جرى تلقيحها لتزرع في رحم امرأة أخرى، فإذا جاء المولود «المبارك» فلمن سيكون؟؟ إنه استنساخ جديد أو استمساخ جديد، وعبث يصعب تصوره، أو فهم الهدف منه!!!

قضية أخرى: اليهود يتلاعبون بكل شيء، ومن ذلك كلام الله، فكانوا يتلاعبون بمقولة: ﴿ **راعنا** ﴾ ليجعلوها من (الرعونة)، فأنزل

الله قـوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا﴾ (البقرة: ١٠٤). فمن أجل قطع الطريق على المتلاعبين جاء الأمر بترك ﴿راعنا﴾، علماً بأنه لا يوجد فرق كبير بين ﴿راعنا﴾ و﴿انظرنا﴾.

ولعل من الأمثلة التي لمستها، أن الشخص الماسوني الغربي لكونه لا يخاف فإنه يذكر أن الماسونية لا دينية، وأنها تعمل لإعادة بناء هيكل سليمان، أما أخوه الماسوني الشرقي فينفي ذلك كلياً[١].

قضية العلمانية: في الغرب تعني تقاسم السلطة بين الكنيسة والدولة، الكنيسة مسؤولة عن العقيدة والعبادة وإقامة القداسات والوصايا، وما سوى ذلك للدولة، ولا أحد يتدخل في اختصاصات الطرف الآخر. فلما نُقلت إلى الشرق الإسلامي، صار معنى العلمانية الإلحاد، ورفض الإسلام شريعة، ومحاربته دون سواه من الأديان، وتدخل الدولة في كل صغيرة وكبيرة من أمور الإسلام.

وقل مثل ذلك في الديمقراطية والوجودية والحداثة وما بعد الحداثة والبنيوية وأمثال ذلك.

فالمصطلحات أو المفاهيم هذه وأمثالها تنقل وهي «محملة» بخلفيات ثقافية، ومرتبطة بأصول ومرجعيات، وحين تنقل إلينا يحدث الكثير من الخبط والخلط.. و(الدين) خير مثال، فالإنسان المسلم يفهم الدين أو الإسلام على أنه منهج حياة، ليس من حق الحاكم ولا المحكوم

---

(١) للكاتب مؤلف بعنوان الماسونية واليهود والتوراة، يجلو القضية بشكل واضح.

أن يتجاوزه، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. أما (الدين) في المنهج الغربي فهو علاقة بين الإنسان وربه، أي عقيدة وعبادة ليس إلا.

وحين باشرنا الترجمة عن الأمم والثقافات الأخرى، ابتدأنا بعلوم اليونان، فلسفة ومنطق ورياضيات وطب، وتركنا الآداب مع جمالها، لأنها وثنية تؤمن بتعدد الآلهة.. وكان الذين ترجموا أولاً عن اللغة اللاتينية، من اليهود والنصارى، لذا لم يكن ثمة تعليق أو بيان للخطأ والصواب، ومن هنا دخل ثقافتنا الكثير من المفاهيم والمصطلحات، مثل: واجب الوجود بنفسه وبغيره، والجوهر والعرض، والمادة والهيولى، والجوهر الفرد، والجزء الذي لا يتجزأ، وأن الله قديم، والكلام حديث، فالله ليس محلاً للحوادث، وإذن فلم يتكلم، مع أنه تعالى يقول: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا ﴾ (النساء: ١٦٤)، إلى أشياء كثيرة، حتى اضطررنا لإنشاء علم يرد على ذلك كله، أسميناه: (علم الكلام)، انتهى باختراع شبهات، والرد عليها، لقد تحول علماء الكلام إلى (دون كشوتيه) يحاربون شبهات، قد لا تكون موجودة أساساً.

أريد أن أصل إلى القول: بأن أزمتنا الطاحنة اليوم، من أكبر أسبابها الاحتكاك غير المنضبط بالغرب، حضارة وثقافة، وكسر كافة الحواجز، بيننا وبينه.

ومعلوم حين تصطدم حضارتان أو ثقافتان فإن الأقوى تطرد الأضعف وتحجمها، ثم يتبع ذلك فقدان الثقة بها من قبل أهلها،

وتتوقف عن التعامل مع الواقع، لتحاول أن تتكيف مع العالم، ولتفسح له المجال لفرض مفاهيمه ومصطلحاته.

من هنا رحنا ومنذ أكثر من قرن، نقابل بين الأصالة والمعاصرة، بين التراث والحداثة، بين التقليد والتجديد، فإما هذا أو ذاك.

وهكذا شغلنا بمعارك، ما تزال تستنزف المبتقي من طاقاتنا، ثم لم نحقق شيئًا، لاحققنا تقدمًا في المعرفة، هدمنا القديم، ولم نبن جديداً.

المفاهيم الجديدة صارت وسيلة تشرذم وتشتت، بدل أن تكون أداة علم ومعرفة وإيضاح، لقد حصل تداخل وتشابك عجيب، بين الموروث المعرفي الثقافي القديم، والوافد الجديد، فحصل تخلخل في الإجماع الذي تبخر، ففي بلد عربي نسمع بأن نظامه إسلامي أكثر من اللازم، هذا ما يقوله المغتربون، وفي نفس الوقت نسمع بأن هذا النظام إسلامي شكلاً فقط، وهذا ما يقوله التراثيون، ولا يوجد نظام في العالم يمكن أن يصدق فيه الوصفان معًا!!!

لقد ضاع الإجماع الثقافي، فتكرست الاختلافات داخل الأمة، حتى صارت المفاهيم الجديدة الوافدة هدفًا ومقصداً لبعض الأطراف، تريد فرضه بالقوة على الأمة، رضيت أم سخطت، وعُوملت الأمة وكأنها مخلوق قاصر تقتضي المصلحة على أن يجبر على قبول بعض المفاهيم والقيم، شاء أم أبى.

وأريد هنا أن أسجل بعض ما قاله المستشرق البرتغالي (أرنولد

شوبرت)[1] قد حضر في القاهرة مؤتمراً، وأجرى مندوب مجلة الدعوة السعودية معه حواراً صريحاً، تحدث فيه عن اللغة العربية وعبقريتها، وعن أسباب تخلف المسلمين، وعن صورة الإسلام في الغرب، وسبب الهجمة الشرسة عليه، وأخيراً عن الحداثة وبعض الحداثيين عندنا .

فعن تخلف المسلمين يرى أنه عقوبة مستحقة على المسلمين، لتخليهم عن دينهم، وليس لتمسكهم به . ويزيد : أن الأديان عموماً لم تكن مسؤولة عن الكوارث ولا المجاعات .

وعن سبب نظرة الغرب للإسلام وأهله، يقول : بأن صورة الإسلام في الغرب قاتمة، بسبب الموقف العدائي للغرب ضد الإسلام، منذ العصور الوسطى، وما تبعها من احتلال الغرب لبلاد العرب، وإذلالهم مادياً ومعنوياً، واليوم تساهم الصهيونية في تشويه الصورة، وتدمغ الإسلام بأنه دين (إرهابي دموي)، من أجل تخويف الغرب منه، ومن انتشاره، وبهدف وقف زحفه .

وعن موقف الإسلام من الإبداع والابتكار، وعن موقفه من المرأة يقول (أرنولد) : إن الإسلام لم يظلم المرأة، بل أنصفها وكرمها وحافظ عليها، بما لا تعرف الشرائع والفلسفات الشرقية أو الغربية له مثيلاً في تاريخها .

كما أن الإسلام لا يقف في وجه الإبداع والابتكار، والتفكر في

---

(١) مجلة الدعوة، العدد (١٧١٧)، في ٢/٨/١٤٢٠هـ/١١/١١/١٩٩٩م.

الأنفس والآفاق، وهو لا يحجر على العقول، بل يدعو دومًا إلى إعمال العقول.

وحول المجال الثقافي للمسلمين، يرى بأنهم لم يقتصروا على فن دون فن، ولا علم معين دون سواه، والقرآن أورد كل ما ينفع الناس من علم وهداية، وتشريع وفقه وعبادة، ودين ودنيا. وقد أقبل المسلمون على سائر العلوم والفنون يتعلمونها، حتى تفوقوا فيها، لذا تنوعت معارفهم، فلم يتركوا علمًا إلا درسوه، وقد أدهشت نهضتهم العلمية السريعة الدنيا، وهم يجمعون بين العلم والحكمة والأدب، وأوروبا اليوم تشهد كلها أن المسلمين كانوا وراء نهضتها.

وعن الحداثة تكلم «أرنولد» بكل وضوح حين سأله مندوب المجلة قائلاً: رأيناك تهاجم الحداثة في المؤتمر، مع أن هذه النظرية روّج لها الغرب، وصدرها إلى العالم، فما خطورتها؟ أجاب «أرنولد»: أوروبا تكاد تنسى هذه النظرية، بعدما فشلت، فلاقت هجومًا عنيفًا من دعاة الأصالة، لكن المثقفين العرب لا يزالون ينظرون إليها ويقبلونها، وقد سرت فيهم إلى حد غير معقول.

لقد اعترفت أوروبا بكونها موجة خاطئة، مليئة بالفوضى والعبث، وهكذا جاءت ردود فعل عنيفة ضدها من مفكري الغرب، قائلين بأنها تسبب الاضطراب في صفوف الأمة، وتفسد ذوقها، وتشوه إحساسها بالجمال، فضلاً عن نشر التفكك في التراكيب اللغوية، ولذا فقد

عجبت أشد العجب عندما رأيت من يدافع عنها في المؤتمر، بعدما تخلى الغرب عنها وتنكروا لها.

إن هذه «التقاليع» وليدة بيئات الفراغ والترف.. وأنا أدعو الجميع، ليقفوا صفًا في وجه التيارات والمذاهب التي تهب عليكم من كل جانب، كي تحافظوا على شخصيتكم».

بعد هذا أود أن يقرأ أبناؤنا من عشاق الحداثة ما تقدم، وأضيف إليه نصًا للدكتور عبد الوهاب المسيري، حيث يقول[1]: ببساطة لقد اكتشفنا أن (الحداثة) المنفصلة عن القيم، أي عن الإنسان، لم تُودِ بالله تعالى فحسب، بل أودت بالإنسان ثم بالطبيعة.. والتحدي الأكبر، الذي يواجهنا في عالمنا العربي والإسلامي، بل العالم بأسره هو: كيف نتوصل إلى حداثة جديدة، تسخر السلع والعلم لخدمة الإنسان، ولا تسخر الإنسان لخدمة السلع والعلم.. حداثة لا تضع أمامنا الاختيار الساذج، بين مستقبل بدون ماضٍ ولا هوية، أو ماضٍ وهوية ولكن بدون مستقبل.. حداثة نحقق من خلالها التقدم، دون أن نفقد توازننا مع أنفسنا، أو مع بيئتنا الطبيعية.. حداثة غير منفصلة عن القيم».

نعم وبكل العزم، نريد حداثة لا تجعل منا تابعًا ندور في فلك (الغير)، بل جرمًا مستقلاً له كيانه وهويته وذاتيته، وله قيمه وثقافته ومشروعه الحضاري.

---

(١) صحيفة الحياة، في ٢٠٠٠/١/٨م.

من الحق أن نقول: بأن نخبنا الثقافية قد خدعت برنين الألفاظ وبريقها،ثم غفلت أو تغافلت عن كون هذه المفاهيم تحمل معاني وقيماً يصعب قبولها ونقلها، ذلك أن البناء الثقافي والحضاري لا يمكن أن يركب تركيباً، ولا يفرض بقرار سياسي، فإن لم يوجد في الأمة عقول مبدعة، تستطيع أن «تصك» مفاهيم، فإن الأمر يبقى تقليداً جامداً ومراوحة في المكان.

يحلو «للبعض» أن يقارن بيننا وبين اليابان بالنسبة للغرب وثقافته، فيقول: كانت اليابان تتلمذ على الغرب مدة، ثم شبت وبلغت فتجاوزت الأستاذ، أما نحن فقد كنا مجرد «زبائن»، والزبون تهمه البضاعة، يأخذها ولا يسأل عن أمر آخر.

التلميذ يكبر، فيصبح أستاذاً، والزبون إذا كبر صار مثل «جهنم» يصرخ دوماً: ﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ (ق: ٣٠)؟!

لقد مضى على زبونيتنا للغرب أكثر من قرنين، فما ازددنا إلا تابعية، وإلا ضعفاً فوق ضعف.. إن الحادي الذي يريد تحريك الأمة، لن يكون من خارجها، ومن عدوها، ولن يكون بما يخالف ويصادم ويناقض قيمها ومفاهيمها.

لا بد أن يتنامى وعينا ذاتياً، وتنطلق طاقاتنا، قناعة لا قصراً، وعلاج أوجه التقصير كافة، وإزاحة العوائق، كي نتحرك كأمة، كما تحركنا بعد انتشار الإسلام، أما أن نتحول إلى شراذم، يحارب بعضنا بعضاً،

ويكيد بعضنا لبعض، ويستقوي بعضنا بالعدو على أهله، فلن نصل إلى شيء، إنها لعبة شد الحبل وكفى.

لقد صرنا حقلًا تجريبيًا، لكل المفاهيم والأنظمة، وجربت فينا ما يناسب وما لا يناسب من الأنظمة والمفاهيم، وكانت النتيجة قبض الريح، والحراثة في البحر!!!

ويعجبي ما كتبه د.برهان غليون -الأستاذ بجامعة السربون- في كتابه: (اغتيال العقل)، وطرحه القضية الثقافية والحداثة بقوة وشجاعة.

يقول د. غليون[1]: التنافس الثقافي عامل أساسي في تقرير مستقبل الأمم، والشعوب والجماعات ومصيرها، ولا تتخلى جماعة عن ثقافتها أو تمايزها الثقافي، مهما كانت درجة هذه الثقافة من الضعف، إلا إذا قررت الانتحار الذاتي، والاندماج في غيرها من الجماعات، وحل جميع الثقافات وإدماجها في ثقافة عالمية واحدة يعني قتل إمكانية إخصاب الحضارة مستقبلاً...اهـ.

وحين تتمدد ثقافة -كالثقافة الغربية اليوم- فهي تحاصر الثقافات الأخرى، وتطردها بعيداً، بحيث تظهر الثقافة المتمددة وكأنها الوحيدة الحية الفاعلة، وما عداها قد عفا عليه الزمن[2]. وهذا ما يدفع الجماعات

---

(١) اغتيال العقل، ص ١٣١، الطبعة السادسة، وأنصح لمن يريد قراءة الكتاب أن يرجع للطبعات المتأخرة، فقد طبع الكتاب في أكثر من عاصمة، ولعدة طبعات.

(٢) المرجع السابق، ص١٣٤.

المحلية إلى النظر بسلبية إلى ثقافتها الخاصة، والاعتقاد بأنها خاوية وجامدة، ولا حياة فيها، ومفتقدة لكل القيم الإنسانية الحية، العقلية منها والروحية والإبداعية، فكل تجاوز حضاري يؤدي إلى تقييم أكبر للثقافة المرتبطة به، وإلى الانتقاص من قيمة الثقافة التي لم تلعب دوراً، أو كان دورها ضئيلاً في هذا التجاوز الحضاري.

ويظهر هذا الانتقاص في تخلي أصحاب هذه الثقافة عنها، فتنتشر الحضارة الصاعدة، خارج وطنها، ولتصبح ثقافة الشعوب «المتبناة»، بعد أن كانت وسيلة لغزوها وإخضاعها، عندئذ لا تستطيع هذه الشعوب أن تفكر بذاتها ولا بوضعها، إلا من خلال «المفاهيم» التي تفرضها الثقافة السائدة، والرؤية العامة الروحية والتاريخية، التي تنشرها وتعممها، فيكون وعيها -أي هذه الأمم- لذاتها هو وعي بغيرها، فلا يقوم إلا به.

ومن لا يصدق ذلك، فلينظر إلى تبني أبناء المستعمرات لثقافة المحتل، حتى بعد رحيله.

وأختم هذ التمهيد -الذي طال واستطال- بما تصوره د. غليون مما تريده الثقافة الغربية من باقي الثقافات. يقول د.غليون[1]: إن الثقافة الغربية لا تكتفي -كالثقافات الكلاسيكية- بإلحاق ثقافات متعددة بها، والسماح لها بالحياة داخل «مدينة» واحدة، تسيطر عليها،

(١) اغتيال العقل، ص١٣٨، والملاحظ أن غليون هو ابن هذه الثقافة، تعلم في فرنسا، ويعلم فيها اليوم، فهو غير متهم.

وتتحكم فيها القيم، إنها تطلب «حل» جميع الثقافات الأخرى، ثم استبدالها بثقافة واحدة، شكلاً ومضموناً، ومن هنا يتأتى إخفاق هذه الحضارة في تكوين إمبراطورية عالمية أولاً، وفي تسعيرها للنزعات القومية، بشكل لا سابق له، وهي وإن وصفت نفسها بثقافة «الحرية»، فهي ترفض كل استقلالية للآخر، وتتحول إلى ثقافة «شمولية»، لا تعترف من بعيد بالعلاقات الاجتماعية العديدة، المعقولة والممكنة، التي تؤسس للشخص البشري، إلا بعلاقة الفرد بالدولة، وتعكس تناقضاتها التاريخية، كثقافة عالمية، مناقضة لكافة الثقافات الأخرى... إنها تقبل وبحماس فكرة «الإمبراطورية الاستعمارية»، حيث لا يبقى للشعوب الأخرى الخاضعة إلا الاختيار بين «الفناء الكامل أو الاندماج والذوبان» ومن موقع الدونية واللامساواة...اهـ

وعن ترجمة المفاهيم والمصطلحات يقول د.غليون[1]: «ففي ثقافة متدهورة ومتراجعة، تضعف قدرة اللغة على التعبير الدقيق، وتنمية المصطلحات بصورة مواكبة لتطور المعاني والمفاهيم المستقاة من ثقافة أخرى مهيمنة، كما تضعف القدرة على ضبط المعاني وتنظيم المفاهيم، بقدر ما تنفصل هذه المعاني والمفاهيم عن صيرورة مستقلة وذاتية، للبحث والإنتاج العلمي.. وعندما يرتبط وجود هذه المفاهيم بمصدرها الخارجي، وتعجز النظم اللغوية والعلمية عن استيعابها وضبطها من

(١) اغتيال العقل، ص١٣٨.

ذاتها، هنا يحصل شرخ في اللغة، وفي النظم العلمية ذاتها، فتبطل فاعليتها الإبداعية، عندئذ تضطر الثقافة التابعة إلى «استيراد» المفاهيم والمصطلحات معًا، وفي فترة لاحقة المعارف العلمية الجاهزة، والتي يعجز عن إنجازها وإنجابها النظام المعرفي. وهذا ما نلاحظه اليوم في ثقافتنا، حيث تدخل المصطلحات دون ضابط، فتثور مشكلة كبيرة في توحيدها وضبطها، مما يفقد اللغة دقتها ومرونتها، بل يدفعها إلى التفكك والركاكة، كما تبدو إجراءات «التعريب» قاصرة عن استيعاب هذه العملية، وهنا يترك للصحافة اليومية الحرية الكاملة، لتدخل ما تشاء من المفردات الأجنبية...اهـ.

يعود لتوضيح القضية بعد صفحات فيقول[1]: ... أكثر ما يميز «الثقافة التابعة» الاستخدام الاعتباطي للمفاهيم، وغياب الروح المنهجية والعلمية. إن استيعاب المعاني الجديدة وتوطينها، لا يمكن أن يتم إلا في إطار توسيع قاعدة البحث العلمي، ونشوء علوم وإشكاليات مستقاة من الواقع القائم، مستجيبة لمشكلاته.

إن الثقافة «التابعة» تطرح على نفسها باستمرار مشكلات ليست مطروحة على مجتمعها، ولكن مستوحاة مما تطرحه على نفسها الثقافة الأصل، وهي تجيب على هذه الإشكالات من أفق -أو افتراض- مُماثلة الشرق والغرب، فتظل على هامش المسألة، وقد لا تكون بالضرورة

---

(١) اغتيال العقل، ص١٤٤.

كاذبة، وليست صادقة، ولكنها خارجة عن الموضوع، وهذا هو مصدر عدم فاعلية الثقافة التابعة وتخبطها، واجترارها الدائم لنفس المسائل، خلال عقود، ولذات الموضوعات، ودون قدرة على بلورة حلول أو حركة مكتسبات علمية، وهذا أساس غياب الإبداع والتقدم الفكري -أي تطور الوعي- وهذا يتجاوز مشكلة سيطرة الأيدولوجيات المادية أو المثالية، والعقائد الوضعية العلمانية، أو اللاهوتية.

فالإبداع مرتبط بآليات عمل الثقافة ككل، وعلاقاتها بالمجتمع والبيئة التي تعيش فيها.

وضعفها أو تفككها ليسا في الحقيقة إلا مظهراً لتعثر الجماعة في بناء أداة تواصلها، ووسائل تفكيرها وفهمها الخاصة والمستقلة، وذلك نتيجة لما أصابها من تهميش واستبعاد عن مصادر الحضارة والغلبة.. .اهـ.

وهنا استذكر ما كتبه د. هشام صالح -تلميذ د.أركون- من أن من وصل إلى الغرب أيام انتشار الوجودية، صار وجودياً، ومن وصلها أيام الماركسية صار ماركسياً، ومثل ذلك البنيوية. وهؤلاء يبحثون قضايا ومشاكل لا توجد في بلدهم، ويعتقد جل هؤلاء أنه متى نقل هذه المفاهيم فقد أدى كل شيء[1].

---

(١) صحيفة الشرق الأوسط، في ١٠/١/١٤١٨هـ.. وقد رأينا «البعض» لا يكلف نفسه حتى ترجمة المصطلحات، بل يكتبها كما هي، ثم يدعي أنه يريد تقدم العقل العربي!

الحضارة
والعوامل المؤثرة في التحضر

قبل الدخول في تعريف الحضارة هناك قضيتان:

١- أجد في بعض التعاريف نوعًا من الرغبة في الإكثار والتعدد، لدرجة غريبة، فالدولة مثلاً، وهي مؤسسة قد يزيد اليوم عمرها على سبعة آلاف عام، نجد لها أكثر من (١٤٥) تعريفًا، وفي الحضارة نجد أكثر من (١٦٥) تعريفًا، وهذه الكثرة الكاثرة أمر بات معروفًا يصعب قبوله.

٢- لدينا في اللغة العربية عدة مصطلحات متقاربة مثل:

حضارة، وثقافة، ومدنية، يقابلها في الإنجليزية على سبيل المثال (Civilization, Culture) والذين اشتغلوا بالترجمة لم يلتزموا نمطًا واحدًا، فمرة ترجموا (Culture)بالثقافة ومرة بالحضارة، وفعلوا ذات الشي في (Civilization) فمرة ترجمت بالثقافة ومرة بالحضارة، وهكذا.

وهذه العملية تربك المتحدث والكاتب لأن عليه أن يحدد ما يعنيه من تلك المصطلحات، تحديدًا دقيقًا، وإلا حصل خلط واختلاط مضر.

والآن ما هي الحضارة لغة واصطلاحًا؟

١- الحضارة لغة واصطلاحًا:

الحضارة في اللغة: تأتي الحضارة على عدة معانٍ[١]:

أ- يقال: حَضَر يحْضَر حُضوراً وحضارة: ضد الغياب.

---

(١) لسان العرب لابن منظور، ٤/١٩٦.

ب- يقال: حكّمت فلانًا بحضرة فلان: أي بوجوده، كما يقال: كنا بحضرة ماء: أي عنده.

جـ- يشيع اليوم لفلان حضور متميز: أي وجود متميز.

كما يقال: رجل حاضر وقوم حضور وحُضر: ضد الغياب.

د- الحَضَارة: الإقامة في الحَضَر أي المدن. وقد أنشد (القطامي):

فمن تكن الحضارة أعجبته فأي رجال بادية ترانا

كما أنشد أبو الطيب:

حسن الحضارة مجلوب بتطرية

وفي البداوة حسن غير مجلوب

الحضارة «Civilization» اصطلاحًا:

يعود أصلها الغربي إلى المدينة، وهنا يطابق الأصل العربي (الحاضرة) بمعنى المدينة، والمتحضر ساكن الحاضرة، وشاع في العربية: سكان الحواضر، وأهل الحواضر، في مقابل البادية وأهل البادية، لكن الاستعمال الغربي للحضارة لم يتبلور قبل القرن الثامن عشر[1]. وسوف استعرض بعض هذه التعاريف:

١) تعريف «ديورنت»: إنها نظام اجتماعي يُعين الإنسان على الزيادة في إنتاجه الثقافي، وتتألف من أربعة عناصر: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون، وهي

(١) الحضارة، الثقافة، المدنية، د. نصر محمد عارف، سنة ١٤١٤هـ، ص٣٣.

تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق، لأنه إذا ما أمن الإنسان من الخوف، تحررت في نفسه دوافع التطلع، وعوامل الإبداع والإنشاء، وبعدئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه، للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها[1].

يلاحظ أن التعريف جاء جامعًا، ومعه شرحه، علمًا بأن ديورنت خير من اعتنى بالحضارة، وكتابه «قصة الحضارة» خير شاهد.

٢) يركز المفكرون الألمان على الأبعاد المادية من حياة الإنسان، بينما يركز المفكرون الفرنسيون على البعدين المادي والفكري من أبعاد التقدم[2].

٣) يعرفها «جورج باستيد» الفرنسي: بأنها التدخل الإنساني الإيجابي، لمواجهة ضرورات الطبيعة، تجاوبًا مع إرادة التمرد في الإنسان، وتحقيقًا لمزيد من اليسر في إرضاء حاجاته، ولإنقاص العناء البشري[3].

والتعريف ينصب على الهدف من الحضارة بالدرجة الأولى.

٤) يعرفها «تايلر» بأنها ذلك الكيان المعقد الذي يضم المعرفة والمعتقدات، والفنون والآداب، والقوانين والعادات، وجميع القدرات، والتقاليد الأخرى، التي يكسبها الإنسان، بصفته عضوًا في المجتمع[4].

التعريف يركز على مشتملات الحضارة، بشكل عام.

---

(١) قصة الحضارة، ترجمة د. زكي نجيب، طبعة ١٩٥٦م.

(٢) سوسيولوجية الثقافة، د. الطاهر لبيب، معهد البحوث العربية، ١٩٧٨م، ص٧.

(٣) المدنية، ترجمة عادل العوامي، طبعة دمشق، ص١٢.

(٤) في معركة الحضارة، د. قسطنطين زريق، ص٣٤.

٥) يعرفها د.قسطنطين زريق: بأنها حياة المجتمع المتمثلة في نظمه ومؤسساته ومكاسبه وإنجازاته، وفي القيم والمعاني التي تنطوي هذه الحياة عليها[١].

وهذا التعريف قريب جداً من تعريف تايلر، وكأنه مأخوذ منه، أو هو اختصار له.

٦) د. برهان غليون يحاول أن يقارن بين الحضارة والمدنية فيقول: «إذا كانت الحضارة هي النمو المطرد، في المنظومات المادية، والعقلية والروحية، التي تنقل المجتمع من البدائية إلى التحضر، وتجعله يتجاوز -كما ذكر ابن خلدون- إنتاج الحاجيات إلى الكماليات، أو تطوير نوعية إرضاء الحاجات، فإن المدنية هي المبادئ التي تقوم عليها هذه المنظومات، أو التي تشكل نواتها الأولى. وإذا كانت الحضارة مرتبطة أساساً بتنظيم علاقة الإنسان بالطبيعة، ودرجة سيطرته عليها، وأنماط إنتاجه المادي والروحي، فالمدنية ترتبط بتنظيم علاقات الإنسان الاجتماعية، وبدرجة تحول هذه العلاقات إلى علاقات مبنية على التواصل والتبادل السلمي، لا على العنف والإكراه، وعكسها «البربرية».

إن المدنية ثمرة الثقافة، لكنها ليست نتيجة تلقائية لها[٢]. الحضارة إذن النمو في الماديات والعقليات والروحيات، أما المدنية فهي المبادئ

(١) في معركة الحضارة، ص٤٠.

(٢) اغتيال العقل، ص١٥٠.

التي تقوم عليها الحضارة، والتي تنظم علاقات الإنسان الاجتماعية.

٧) د. نصر عارف يرى أن المترجمين العرب لمصطلح «Civilization» قد انقسموا قسمين[١]:

أ- القسم الأول: ترجمها «حضارة»، وقد بدأ ذلك في أوائل القرن التاسع عشر، فقد ظهرت في كتابات «رفاعة الطهطاوي» -المشرف على البعثات المصرية إلى أوروبا- فهو حين يتحدث عن التمدن يقول: إن للتمدن أصلين: معنوي وهو التمدن الأخلاقي، وفي العوائد والآداب، ويعني التمدن في الدين والشريعة، وبهذا القسم قوام الملة المتمدنة، التي تسعى باسم دينها وجنسها للتميز عن غيرها.

والقسم الثاني تمدن مادي، وهو التقدم في المنافع العمومية.. وقد استمر هذا الفهم للتمدن، حتى أوائل القرن العشرين، وابتداء من الربع الثاني للقرن العشرين، شاع هذا الاستعمال كثيرًا، أي ترجمة «Civilization» إلى حضارة.

يعلق د. نصر على ما تقدم، فيرى: أن الترجمة إلى الحضارة بدت صحيحة في ضوء أحد معاني «الحضارة»، لكن تطور المفهوم العربي، وتلبسه بالدلالات الغربية، قد أخرج مفهوم الحضارة عن نطاقه ومحتواه[٢]. كما يرى أن ثمة إجماعًا في القواميس والمعاجم، على اعتبار الحضارة هي جملة الظواهر الاجتماعية ذات الطابع المادي

---

(١) الحضارة، الثقافة، المدنية، ص٤٢.

(٢) المرجع السابق، ص٤٦.

والعلمي والفني والتقني، الموجودة في المجتمع، و التي تمثل مرحلة راقية في التطور الإنساني[١].

أسباب الاختلاف:

من أسباب الاختلاف والارتباك عندنا، أن الغرب الذي ننقل عنه المصطلحات عنده مصطلحان: « Culture ،Civilization »، يقابلهما في لغتنا أربعة مصطلحات هي: حضارة، ثقافة، مدنية، تقنية. من هنا جاء الارتباك والاختلاف والتداخل.

ومن البدهيات أن أي مصطلح يبدأ غامضًا وغير محدد بدقة، ولكن مع مضي الوقت، وكثرة الاستعمال، يذهب الغموض، ويتحدد المصطلح، ولما كان الغرب يختلف، بل يتوسع في الاختلاف، بحيث يضع للثقافة أكثر من (١٦٥) تعريفًا، ومثلها الدولة والحضارة، جاء الاختلاف عندنا وشاع، كما هو شائع في الغرب.

إن التناول الغربي لمصطلحي « Culture،Civilization »، يجعل منهما مترادفين –كما لدى تايلور– وهناك من جعل « Civilization » قاصرًا على التقدم المادي مثل الألمان.. وهناك من يجعله شاملاً لكل أبعاد التقدم، مثل الفرنسيين.. فريق ثالث يحصر التقدم بما هو خاص بالفرد، ورابع يجعله شاملاً للفرد والجماعة.. وهناك فريق خامس، حاول أن يجعل من مصطلح « Civilization » مفهومًا عالميًا، أي هناك حضارة

(١) الحضارة، الثقافة، المدنية، ص٤٨.

واحدة، تساهم المجتمعات فيها كل بنصيب، أما الثقافة فهي خاصة بكل شعب.. وهناك فريق سادس يعكس القضية فيجعل الثقافة عامة، والحضارة خاصة[1].

هذا الاختلاف يصل إلينا، ونحن ما زلنا في دور المتلقي المترجم، ولسنا في دور المنتج المبدع. لذا وجدنا الاضطراب يسود كتاباتنا، فمن ترجم «Culture» إلى ثقافة، جعل «Civilization» حضارة، ومن ترجم «Culture» إلى حضارة، جعل «Civilization» مدنية. وهناك من يعتبر الثقافة هي الجانب الفكري، ولذا يكثر الحديث عن الثقافات الخاصة، وأن كل أمة لها ثقافتها، وقد لا تكون لها حضارة، أما الحضارة فتشمل الجانب المادي[2]، وقد ينعكس الأمر، لتكون المدنية تمثل الجانب المادي، والحضارة تمثل الجانب المعنوي.

ويعتقد د. محمد حسين هيكل، ومثله محمد عزيز الحبابي، أن العالم تسوده حضارة واحدة، ساهم فيها الكل، وهي ملك للكل.

يقول د. هيكل: إن الحضارة تراث عالمي، لا يجوز شطره جزئين منفصلين، فلا وجود لحضارة شرقية، ولا حضارة غربية، وإنما هناك حضارة عالمية واحدة، يجب الإيمان بها، والإخلاص لها[3].

ويقول الحبابي: ... والحضارة تراث مشترك يجمع بين جميع

---

(١) الحضارة، الثقافة، المدنية، ص٤٠.

(٢) الثقافة والحضارة، سلامة موسى، مجلة الهلال، عدد ديسمبر ١٩٢٧م.

(٣) الحضارة بين الشرق والغرب، ملحق جريدة السياسة، عام ١٩٣٢م.

الشعوب، قديمها وحديثها، وإنها إرث إنساني، في نمو لا ينقطع، مثل بحر زاخر بالمياه والأمواج، وله روافد عديدة تصب فيه على الدوام، تلك الروافد هي الثقافات القومية[1].

والذي لا شك فيه أن الحضارة حين تعطي كل ما لديها، تم تجف منابعها تسقط، فترثها حضارة أخرى تالية، لتبدأ من حيث انتهت سابقتها، وليس من الصفر، ولذا فهناك دومًا «إرث حضاري»، لكن الحضارة التالية تضيف وتحذف، تستبعد أشياء، وتستحدث أشياء، ومن هنا يأتي تميز الحضارات.

فإذا نظرنا للإرث، فهي واحدة، وإذا نظرنا للمستجدات فهي متعددة، وإن كان الغرب يريد أن ينكر هذه الحقيقة، خصوصًا على الحضارة الإسلامية، فلا يعترف لها بفضل، لكن يلاحظ أن أمثال شبنجلر وتوينبي يرفض ذلك، كما تتعالى اليوم أصوات ترفض هذه النظرة العنصرية وإنكار أي أثر للحضارات السابقة.

الحضارة في المدلول الإسلامي:

لقد وجدت د. نصر محمد عارف، يبحث عن الجذر اللغوي لكلمة حضارة، واستعمالاتها اللغوية، فيعد سبعة معان، ثم يبين الأكثر دورانًا واستعمالاً، فيقول[2]:

---

(١) الحضارة الإنسانية وحضارة التصنيع، مجلة الوحدة، العدد ٤، ١٩٨٥م.

(٢) الحضارة، الثقافة، المدنية، ص٥٦، وأصل المادة مأخوذة من لسان العرب (حضر).

١- الحضور نقيض المغيب والغيبة.

٢- بمعنى عنده: كنا بحضرة ماء، ورجل حاضر.

٣- قرب الشيء: الحضرة، كنت بحضرة الدار.

٤- جاء أو أتى: حضرت الصلاة، أو حضر القاضي.

٥- الحضر خلاف البدو، والحضارة الإقامة في الحضر.

٦- الحاضرة: الحي العظيم.

٧- الحاضر: ضد المسافر.

وتأتي «حضر» بمعنى شهد، كقوله: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ (البقرة:١٨٠)، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ﴾ (النساء:٨).

كما تأتي «شهد» بمعنى حضر، كقوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ (البقرة:١٨٥).

وقد اعتدت في مثل هذه الموضوعات، أن أعود للفيروزآبادي، فهو خير من يتابع المصطلح في كتاب الله، وألخص ما قال[1] في مصطلح الشهادة:

١- الشهود والشهادة: الحضور مع المشاهدة، إما بالبصر أو البصيرة، يقال: شهدت كذا أي حضرته، كما يقال شهدت على كذا. قال تعالى: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾ (النمل:٤٩)، أي ما حضرنا.

(١) بصائر ذوي التمييز لكتاب الله العزيز، تحقيق محمد علي النجار، ٥/٣٥٠، عام ١٣٨٧هـ.

٢- الشهادة: قول صادر عن علم، حصل بمشاهدة بصر أو بصيرة، قال تعالى: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ (الزخرف: ١٩)، تنبيهًا إلى أن الشهادة لا بد أن تكون عن شهود.

٣- الشهادة بمعنى العلم، قال تعالى: ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ (آل عمران: ٧٠)، وقوله: ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (الكهف: ٥١)، أي ما أطلعتهم..

والشهادة تأتي على نوعين:

أ- أشهد بكذا: أعلم بكذا، ولا تقبل إلا بهذا اللفظ.

ب- أشهد: يجري مجرى القسم، فيقال: أشهد بالله أن فلانًا كذا.

٤- شهادة الله بمعنى إيجاد، مثل قوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ (آل عمران: ١٨)، فشهادته تعالى بوحدانيته، تكون بإيجاد ما يدل على وحدانيته في العالم وفي نفوسنا.

٥- الشهيد: يطلق على المشاهد والشاهد، يقول تعالى: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ (ق: ٢١)، والشهيد من قتل في سبيل الله.

٦- الشهداء: جمع شهيد، وتأتي بمعنى من يشهد وبمعنى الأعوان، قال تعالى: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم﴾ (البقرة: ٢٣) أي أعوانكم، أو من يشهدون لكم، وتكون على الغير قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣).

٧- الشهادة، أي شهادة التوحيد: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وقد وجدت د. نصر يولي الشهادة في القرآن الكريم عناية طيبة، فيرى أن لها أربع دلالات متكاملة، تؤدي معنى الحضارة، أو الشهادة في الفهم الإسلامي، وهي لا يمكن أن تتجزأ، وإلا فقدت مضمونها، وكل دلالة تمثل جزءاً من بناء مفهوم الحضارة، ولا بد من توافرها جميعًا، في نسق واحد، وهذه الدلالات هي[1]:

١) الشهادة بمعنى التوحيد والإقرار بالعبودية لله، والاعتراف بتفرده سبحانه بالألوهية والربوبية، وهي محور العقيدة الإسلامية، وعليها يتحدد التزام الإنسان بمنهج الله، أو الخروج عنه.

٢) الشهادة بمعنى قول الحق، وسلوك طريق العدل، أو الإظهار والتبيين، أو الإخبار المقرون بالعلم، أو الملاحظة والمراقبة، وتعد مدخلاً من مداخل العلم، ووسيلة من وسائل تحصيل المعرفة.

٣) الشهادة بمعنى التضحية والفداء، وتقديم النفس في سبيل الله حفاظًا على العقيدة، ودفاعًا عن تحرير الإنسان من عبادة العباد، وإخراجه إلى عبادة الله وحده.

٤) الشهادة كوظيفة لهذه الأمة: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة:١٤٣).

(١) الحضارة، الثقافة، المدنية، ص ٥٨.

وينصرف معناها إلى الشهادة في الدنيا والآخرة، ذلك أن واجب الشهادة لا تقوم به إلا الأمة الوسط، الخيرة المتميزة.

«وطبقًا لهذه المعاني الأربعة، فإن الحضارة هي الحضور والشهادة بجميع معانيها، التي ينتج عنها نموذج إنساني، يستبطن قيم التوحيد والربوبية، وينطلق منها كبعد غيبي، يتعلق بوحدانية خالق الكون، وواضع نواميسه وسننه، والمتحكم في تسييره، ومن ثم فإن دور الإنسان ورسالته هي في تحقيق الخلافة عن خالق هذا الكون في تعمير أرضه وتحسينها، وتزجية معاش الناس فيها، وتحقيق تمام التمكين عليها، والانتفاع بميزاتها، وحسن التعامل مع المسخّرات في الكون، وبناء علاقة سلام معها، لأنها مخلوقات تسبح الله، أو رزق لا بد من حفظه وصيانته.

كذلك إقامة علاقة مع بني الإنسان، في كل مكان على ظهر الأرض، أساسها الأخوة والألفة، وحب الخير والدعوة إلى سعادة الدنيا والآخرة»[1].

الموقف من الحضارات الأخرى:

يبقى سؤال يفرض نفسه: كيف يمكن النظر للخبرات الحضارية خارج إطار الإسلام، هل نتجاهلها، كما يفعل الغرب مع الحضارة الإسلامية؟ هل نعترف بها ونفيد منها؟

---

(١) الحضارة، الثقافة، المدنية، ص٥٩.

ابتداءً نجد القرآن الكريم يفرد لحضارات الأمم السابقة ثلثه للحديث عنها، في جوانبها الإيجابية والسلبية.

وورد أن أبا بكر رضي الله عنه نظر إلى وجه رسول الله ﷺ، وقال: أراك شبت يا رسول الله، فرد عليه صاحب الرسالة: «**شيبتني هود وأخواتها**»[1]. والذي يقرأ سورة هود يجدها تتحدث عن «ست» حضارات، مضى عليها ألوف السنين، وكل واحدة أصابها «مرض قاتل»، فمن تلاعب بالموازين، إلى عبث بالأمن وإخافة للناس، إلى شذوذ جنسي، وتعاط للزنى علنًا ... إلخ. وكانت الثمرة أن كل أمة من هذه الأمم، أصابتها عقوبة موجعة، وضربة ربانية قاتلة.

ومعلوم أن بين هذه الأمم وبين عصر الرسالة ألوف السنين، ولكن الكتاب الكريم -وهو كتاب هداية بالدرجة الأولى- سرد أخبار هذه الحضارات وغيرها بتفصيل ليوجه رسالة للأمة الإسلامية، مفادها: من استقام على أمر الله فله السعادة في الدنيا والآخرة، ومن تنكب عن شرائع الله وهجرها، فمن السنن أن يناله العقاب في الدنيا -مع كونها ليست دار حساب وعقاب- وله مثل ذلك في الآخرة، لا فرق بين البشر، ومن هنا جاء تخوف صاحب الرسالة ﷺ، أن تسقط أمته، وهي

---

(١) أخرجه الترمذي، وقال: حسن غريب، تحفة الأحوذي، ١٩٣/٤. كما أخرجه الحاكم في مستدركه، وقال: على شرط البخاري، المستدرك، ٣٤٣/٢.

المنوط بها الشهادة على العالم، أن تسقط فيما سقط فيه غيرها، فيحل فيها ما حل فيهم.

أما تصور «البعض» بأنهم شعب الله «المختار» فتلك من الأماني -والتمني رأس مال المفلس- فالله لا يحابي أحداً، وعدالته تأبى ذلك.

حرب الروم والفرس:

قضية أخرى يسجلها القرآن النازل في مكة، ويفرد لها سورة باسم «الروم».. وفي ستين آية، تتحدث السورة عن صراع الفرس والروم، فيقول تعالى: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم: ١-٦).

فالمسلمون المحاصرون بمكة، والواقعون تحت الإرهاق والتعذيب، ينزل عليهم قرآن يتلىٰ إلى يوم القيامة، يتعلق باحتكاك مسلح بين أمتين على أطراف الجزيرة، واحدة صاحبة كتاب (الروم)، وأخرى مُشْرِكة (الفرس)، تكون الغلبة والانتصار من نصيب الفرس، فيحزن لذلك المسلمون وتفرح قريش وتباهي بهذا النصر، ثم لتتخذ منه عبرة فتقول: كما انتصر الفرس وهم مثلنا، على الروم وهم مثلكم، فكذلك سننتصر عليكم، فيأتي وعد من الله بأن النصر سيكون من نصيب الروم، وذلك

في (بضع سنين) . ويلاحظ أن القرآن غير سالك مثل التوراة في ذكر الأسماء والسنين، وحتى عدد الجنود والمقاتلين، ومع ذلك خرج على سنته، وحدد لفوز الروم بضع سنوات، وعقب على ذلك تعقيبًا، وهو الأهم، إذ قال: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ (الروم: ٤-٥) . وهذا درس للأمة إلى قيام الساعة، كي لا تقف موقفًا سلبيًا لا مبالاة فيه مما يجري في الكون، والشهادة تقتضي ذلك.. وسوف أؤجل بعض الحديث إلى بحث الأهداف الكبرى من خلق الإنسان .

ومما له صلة بالموضوع أن نجد صاحب الرسالة ﷺ يأمر المسلمين المضطهدين بمكة أن يهاجروا للحبشة، لأن فيها ملكًا لا يظلم الناس عنده، وتتكرر الهجرة، كما تحاول قريش استرداد المسلمين من هناك، فيرفض النجاشي ذلك ويمنحهم حماية كانوا بأمس الحاجة لها .

الحديث عن مصير الفرس والروم:

ليس من أهداف الإسلام الحديث عن الأمم -كما فعلت التوراة- لكنا وجدنا صاحب الرسالة ﷺ يتحدث عن أمتين مجاورتين: الفرس والروم، فيصف مصيرهما، كما يصف بدقة علاقة المسلمين بهما، يقول عليه الصلاة والسلام: « **فارس نطحة أو نطحتان، ثم لا فارس بعد هذا، والروم ذات القرون، كلما هلك قرن، خلفه قرن، أهل صبر، وأهله أهل لآخر الدهر، هم أصحابكم، ما دام في العيش خير** »[1] .

(١) كنز العمال، ١٢/٣٠٣، الحديث «٣٥١٢٧».

وفي مسند الإمام أحمد حديث لصاحب الرسالة ﷺ يقول: « **أشد الناس عليكم الروم، وإنما هلكتهم مع الساعة** »[1].

وما حصل بالفعل أن جيوشنا هزمت الفرس في القادسية ونهاوند، فقضت على الإمبراطورية الفارسية نهائيًا. أما الروم فقد قذفنا بهم خلف البحر، ويقول أحد مؤرخي الغرب، بأننا اصطدمنا مع الروم (الغرب) بـ (٣٧٠٠) معركة كبيرة، وما زالت المعارك حتى اليوم مستمرة.

ولعل من تمام البحث أن نذكر حديثًا سمعه عمرو بن العاص رضي الله عنه عن الروم، فعلق عليه تعليقًا يدل على مدى فهم العرب لجيرانهم الروم، ولمقدار إنصافهم.

فقد روى موسى بن علي عن أبيه قال[2]: قال المستورد القرشي، عند عمرو بن العاص، سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **تقوم الساعة والروم أكثر الناس** »، فقال له عمرو: أبصر ما تقول، قال: أقول ما سمعت من رسول الله، قال عمرو: لئن قلت ذلك إن فيهم لخصالاً أربعًا: إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة،

(١) مسند الإمام أحمد، ٥٦/٢٤، الحديث ١٥٨، تصنيف الساعاتي.

(٢) صحيح مسلم، باب الفتن، ٢٢/١٨، المطبعة المصرية.

وأوشكهم كرة بعد فرة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة: أمنعهم من ظلم الملوك.

لا نعلم هل قال هذا -داهية العرب- من عنده، أم هو قبس من نور النبوة، وفي كل الأحوال، فهو ينبئ عن معرفة دقيقة أولاً، وعن إنصاف كبير للقوم.

وعد فريد:

أريد أن استطرد لذكر وعد فريد، يخص النصارى، جاء في كتاب الله، والقرآن الكريم ليس دأبه ذلك، يقول تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ (آل عمران: ٥٥). في الآية الكريمة قضيتان: الأولى بقاء النصارى إلى يوم القيامة، والثانية أن يكونوا فوق الكفار كذلك.

البعض يجادل بأن النصارى حرفوا وبدلوا، فهم ليسوا أتباعًا للسيد المسيح، بينما الوعد للذين اتبعوه. ومعلوم أن لا جديد في عقائد النصارى، إلا قلة قليلة جداً، والباقون كلهم يؤمنون بالتثليث والصليب.. .إلخ، ولا جديد عندهم، اللهم إلا ما تحاول اسرائيل من رفع نصوص في الأناجيل، ومن بعض الصلوات، ومن الدعاء على اليهود، وأما ما سوى ذلك فلا جديد فيه.

الموقف من حضارة الغرب:

لا يخفى أن كل متكلم عن الحضارة، إذا أطلق «الحضارة»، فهو يقصد الحضارة الغربية.

وابتداءً، فإن الغرب يحتقر كافة الحضارات -باستثناء اليونانية والرومانية- ولا يقيم لها وزنًا، ويدرب أفراده على التعالي والتكبر، بل هو يتطرف فيصم كل معتز بحضارته بأنه يعادي الغرب وحضارته، ولذا سأستشهد بنصوص لبعض الرموز الإسلامية وغيرهم:

أولاً: شهادة سيد قطب[1]:

يقول سيد قطب يرحمه الله:

«لقد غابت أمتنا المسلمة عن الوجود والشهود، دهرًا طويلاً، وقد تولت قيادة البشرية أمم أخرى، وتصورات أخرى، وأوضاع أخرى، وقد أبدعت العبقرية الأوروبية في هذه الفترة رصيداً ضخمًا من العلم والثقافة والأنظمة والإنتاج المادي، وهو رصيد ضخم تقف البشرية على قمته، غير مستعدة للتفريط فيه، ولا فيمن يمثله، وخاصة أن العالم الإسلامي يكاد يكون عاطلاً عن كل هذه الزينة.

إن هذه الأمة لا تملك أن تقدم للبشرية تفوقًا خارقًا في الإبداع المادي، تحنى له الرقاب، ويفرض قيادتها العالمية.. من هذه الزاوية، فالعبقرية الأوروبية قد سبقتها في هذا المضمار، سبقًا واسعًا، وليس من

---

(١) معالم في الطريق، ص٨.

المنتظر خلال قرون على الأقل، التفوق المادي عليها، فلا بد من مؤهل آخر، مؤهل تفتقده هذه الحضارة.

وهذا لا يعني أن نهمل الإبداع المادي، فمن واجبنا أن نحاول فيه جهدنا، ولكن ليس بوصفه المؤهل الذي نتقدم به قيادة العالم، في المرحلة الراهنة، وإنما بوصفه ضرورة ذاتية لوجودنا، وكذلك بوصفه واجبًا يفرضه علينا التصور الإسلامي الذي ينوط بالإنسان خلافة الأرض، ويجعلها تحت شروط معينة عبادة لله تعالى، وتحقيقًا لغاية الوجود الإنساني..

لا بد إذن من مؤهل آخر لقيادة البشرية غير الإبداع المادي، ولن يكون سوى «العقيدة» والمنهج، الذي يسمح للبشرية أن تحتفظ بنتاج عبقريتها المادية، تحت إشراف العقيدة والمنهج، من تجمع إنساني، أي في مجتمع مسلم». وأحسب أنها شهادة واضحة متوازنة منصفة.

٢- شهادة د. رشدي فكار:

د. فكار يرحمه الله، ابتدأ تعليمه في الأزهر وانتهى في الجامعات الغربية، فهو ابن الحضارة الغربية، وثمرة من ثمراتها، وراصد جيد لها ولما تموج به.. عرف إيجابياتها، كما يعرف سلبياتها.

وهو يقول[1]: لن نستطيع أن نقدم للعالم طائرات أسرع، ولا طرقًا

---

(١) رشدي فكار في حوار متواصل، ص٥٤.

أنعم، ولا سيارات أجود، ولا صناعات أفضل، لكن بإمكان الإسلام أن يقول: سأعطيكم إنسانًا أكثر توازنًا واعتدالاً، أكثر برًا وإحسانًا، إنسانًا يرتبط بمبادئه، يهاب ويخشى خالقه، إنسان يحترم الإنسان، ويعمل لإسعاده، لا الارتقاء بناطحات السحاب، واستنزاف الخيرات، في إطار من التحايل والمكر، والدهاء والكيد.

بمعنى آخر: صياغة وبناء الإنسان ليبني كل ما دمر... إن صياغة الإنسان ما تزال الأصعب، الإنسان صنع «الكمبيوتر»، وقد راح الأخير يصمم ويصنع العجائب، صنع الإنسان المركبات وأرسلها إلى أعماق الفلك، صنع الطائرات التي فاقت سرعتها سرعة الصوت، صنع الصواريخ عابرة القارات، لكنه يفشل في تربية طفل داخل البيت.

إن التربية المتوازنة لإنسان متوازن ما زالت هي الأصعب، المطلوب إنسان تتوزان أشواقه الروحية ونزعته العقلية، وعواطفه وغرائزه، مع توجهاته الدنيوية، وأشواقه الروحية، وتتصالح هذه التوجهات ولا تتحارب، هذا الإنسان هو المطلوب اليوم وغداً، والحاجة له تفوق حاجتنا لصواريخ ذكية أو غبية، قبل أن يفلت الزمام، فتتحول الأرض كرة لهب، أو فرن ذري يشوي الكل.

٣- مالك بن نبي:

تحوي الحضارة أفكاراً وتشريعات، كما تحمل قيماً ومنتجات مادية، والمقتبس بالدرجة الأولى، هي المنتجات المادية، فالعالم اليوم كله يستعمل المنتجات الغربية فهل تحضَّر؟

يقول مالك بن نبي يرحمه الله[1]: لكل حضارة منتجاتها التي تتولد عنها، ولكن لا يمكن صنع حضارة بمجرد تبني منتجات حضارة ما، فشراء ما تنتجه الحضارة الغربية، من قبل كافة دول العالم، لم يجعلها تكسب حضارة أو قيماً، إذ الحضارة ليست تكديس منتجات، بل هي فكر ومثل وقيم، لا بد من كسبها أو إنتاجها.

إذن فكل من يشتري منتجات حضارة، فهو مستهلك حضارة، وليس منتج حضارة.

ويحلو للبعض أن يقارن بيننا وبين اليابان، في الموقف من الحضارة، فيقول: كانت اليابان تلميذاً نجيباً للغرب وحضارته، والتلميذ قد يتفوق على أستاذه ويتجاوزه، أما نحن فكنا مجرد زبائن، وما زلنا كذلك، فالزبون يأخذ البضاعة وينصرف، ويكرر ذلك كلما احتاج.

٤- المستشرق الفرنسي «جاك بيرك»:

يتحدث بيرك عن أخذ الحضارة الغربية كلية -كما ينادي البعض- فيتساءل[2]: هل النموذج الغربي ضروري وحتمي، بالنسبة لكافة الشعوب؟

ويجيب: ليس بضروري ولا حتمي، بل يؤدي في أحيان كثيرة إلى أنواع من الفشل والقلق والتمرد.

---

(١) شروط النهضة، ص٤٢.

(٢) نحن والصديق اللدود، للكاتب، ص٩٨.

٥- د. رفيق حبيب:

د. رفيق نصراني مصري، يردد كثيراً بأنه: نصراني ديانة، مسلم ثقافة وحضارة.. له عدة كتب منها «تفكيك الديمقراطية»، يظهر منهجه الفكري وما يؤمن به، والكتاب يستحق القراءة بل والدراسة، وسألخص بعض ما جاء فيه، بحسب ما يسمح البحث.

لقد عنونه «حكم الأقلية»، موضحًا أن الحضارة العربية الإسلامية أصابها «الوهن»، مع نهاية القرن الثامن عشر، حيث حصل انقطاع تاريخي[١]، ونعني به انقطاعات عن قيمنا ومبادئنا ومقدساتنا، وهو انقطاع عن التطور، وأيضًا عن السيادة والسلطة...

أما قبل ذلك فكان للأمة كبوات تنهض بعدها، ولكن مع نهاية القرن الـ ١٨ كان السقوط الأكبر، وهنا ظهر الغرب بكل قوته وإنجازاته وسطوته.. وأمام هذا التحدي «الحضاري» لم تكن الأمة قادرة على الصمود، فاجتمع على الأمة التحدي الخارجي والضعف الداخلي.

فراح الغرب يفرض قيمه، وفي نفس الوقت يهمش قيم الأمة، ووجدت مجموعة فرصتها لتصل إلى الحكم، محمولة على أسنة رماح الغرب، فراحت تميل لقيم مخالفة لقيم الأمة.

«إن التدهور الحضاري -الذي عشناه- أخرج القيم المتنحية.. والقوة الغربية المهيمنة، حولت أصحاب هذه القيم إلى مساحة للوكالة

(١) تفكيك الديمقراطية، ، دار الشروق، الطبعة الأولى، ص٩٤.

عن الحضارة الغربية، وهكذا توحد الهامش الداخلي، مع الوافد المستورد، والمفروض من الخارج، ليصنعا «جماعة هامشية، ومجتمع أقلية»، تسوده قيم غريبة ووافدة وهامشية... لهذا فوكلاء الغرب الثقافيون، أصبحوا نخبة لا تبدع للأمة ولأجلها، بل أصبحوا قوة ناقلة لقيم الغرب، مؤكدة للقيم المتنحية من حضارتنا، مما أفقد الأمة الكثير من الفرص كي تنهض مرة أخرى»[1].

إذن هناك جدول أعمال «لتفكيك الأمة» في نظر د. رفيق، يتمثل في فرض قيم وطرد قيم، فرض قيم مخالفة للأمة، وزرع قيم أخرى، لتصبح مع مرور الزمن قيماً ثابتة، وليصبح وجود الأقلية وحكمها حالة مطلوبة ومستمرة، وليمدها الغرب بكل ما يملك من سند وإسناد.. ثم يطرح بعض النتائج فيقول[2]:

١- إن صح تصورنا السابق، فالجاري الآن -في قلب أمة العرب والمسلمين- هو حكم أقلية، بنموذج قيم وافدة، وهو مفضٍ في النهاية إلى إرساء قواعد مغايرة تماماً لنا.

٢- ما يحدث هو فرض لقيم ليست من الأمة، وبالتالي لا تحقق إشباعاً لها، كما لا تحقق لها اتفاقاً ولا إجماعاً.

٣- ما يفرض هو قيم يؤكد الشاهد التاريخي أنها غير محققة للتقدم

(١) تفكيك الديمقراطية، ص٩٦.

(٢) المرجع السابق، ص٩٨.

والازدهار في أوطاننا، وإن كانت محققة لهما في أوطان أخرى.

٤- إن حكم «قيم الأقلية» في حد ذاته، يعني سيطرة قيم «مرفوضة» على قيم «مرغوبة»، وهو ما يعني اغتصابًا للسلطة من الأمة، ونزع قيمها من حياتها.

٥- إن قلب منظومة «القيم» بهذا الشكل، يؤدي إلى تفكيك الأمة، وإدخالها في صراع حول القيم بين «مرفوض ومرغوب».

وهو يكرر التخوف من ذلك، بل يراه عملاً منظمًا «لتفكيك الأمة»، كما يصبح «الانقطاع التاريخي» عملاً مقصودًا ومخططًا، وليس مجرد نتيجة لحالة تدهور تمر بها الأمة.

بعد ذلك يضع عنوانًا: «حكم الأقلية الحضارية».

فيرى: أن الأمة تقع تحت حكم «الأقلية الحضارية»، ويفسر ذلك بأنه الوقوع تحت حكم «قيم حضارية مغايرة»، وفي تسبيب ذلك يذكر الاستعمار -بكل أشكاله- والسبب الثاني هو: ضعف الأمة، وتدهور حالها. والسببان يتفاعلان، مثل الضعف والمرض، فالضعف في الجسم يسهل المرض، والمرض يضعف الجسم.. إن الاستعمار يتأكد بالقابلية له، والهيمنة الحضارية تعضدها القابلية للاستعمار.

والإشكالية الراهنة جاءت من سيادة النموذج الغربي، بدرجة جعلته الحاكم وصاحب السلطة، والمؤيد بالقانون، وعلى الرغم من أنه غريب ولا يعبر عن الأمة، لكنه صاحب السيادة، والخروج منه صار أمرًا

معقداً، لذا فإن تفكيكه والخروج من أسره، سيكون عملاً نهضوياً وثورياً في آن واحد »[1].

والتحدي الحقيقي أمام الأمة يكمن في قدرتها على « إنهاض نمط حياتها الخاصة »، إلا أن العوائق كثيرة ومتشابكة، فتدفع بهذا التحدي للوصول إلى درجة خطيرة، كما يدفع بقوى الأمة إلى إعلان غضبها وتمردها، فحكم الأقلية الحضارية يعني -فيما يعنيه- أن أصحاب القيم الغريبة والمعارف غير السائدة في الأمة، هم أصحاب القرار، وهم الذين يحتلون موقع « النخبة » وهذا الوضع نوع من عنصرية جديدة، يمكن تسميتها بـ « العنصرية الاستعمارية » فهذه القيم الغريبة وأصحابها يحتلون مكانة أهم بكثير من قيم الأمة الأصلية، وهذه عنصرية لا شك فيها.

وهنا يقوم ويتحقق نوع جديد من « الاستيطان »، استيطان أفكار غريبة وافدة، مستقرة في عقول « وكلاء محليين »، وكل ذلك مما يجعل الصراع[2] « فتنة بين أبناء الأمة ».

وهي فتنة بحجم إحساس الأمة « وطليعتها الحقيقية » بأن القيم الغريبة لها تلك المكانة، بينما القيم الأصلية مهمشة، وهذا ما يولد شعوراً بالغبن، ويدفع بالتالي إلى الغضب أو اليأس.

---

(١) تفكيك الديمقراطية، ص١٠٧.

(٢) المرجع السابق، ص١٠٨.

هذا ويتحقق حكم الأقلية الحضارية، من خلال آليات كثيرة، تم زرعها في جسم الأمة، وما زال يزرع غيرها، كي تبقى «الأقلية الحضارية» قوية فاعلة مسيطرة، بفعل وسائل منظمة، تنتج وتكسب أعضاءً جدداً لهذه الأقلية، كي تتجدد أولاً، ولكي يضمن استمرارها.

إن هذه «الآليات» تمثل المشكلة الرئيسة، والتي تجعل الصراع بين «الموروث و الوافد» يتمدد من المجال الحضاري إلى السياسي، حتى يصل إلى حياتنا اليومية.

وأكبر ميدان تثيره آليات «الأقلية الحضارية» هو التعليم، فهو غربي الروح، يروج للغرب، على كافة المستويات، «وهو يقدم رؤى معرفية ضمنية متحيزة للحضارة الغربية، كما تنتج تحيزات لحكم الأقلية الحضارية، بدلاً من أن تنتج طلائع لنهضة الأمة»[1].

ثم يستدرك فيقول: ليس بالضرورة أن يكون كل متعلم متغرباً، أو وكيلاً للغرب، ولكن -على الأقل- معرضون للتشوه الثقافي، والتداخل المعرفي. ويرى د. رفيق أن مشكلاتنا تتفاقم تحت مظلة «العلم»، إذ تتحول كل طاقاتنا العلمية باتجاه «إعادة إنتاج النمط الغربي» فيتأسس علمنا على الاقتباس، على حساب الإبداع، خاصة الإبداع الأصيل، النابع من ثقافة الأمة، وهكذا تتحول «آلة إنتاج المعرفة» إلى منتجة، ولكن بصورة مزيفة عن الأمة، صورة من شروطها

---

(١) تفكيك الديمقراطية، ص١٠٨.

تأهيل الأمة «لعملية التغريب»، يواكبها تشويه الصورة الأصلية للأمة.

هذه بعض طروحات د. رفيق في «تفكيك الديمقراطية»، وهي طروحات لا نعلم أنه سُبق إليها، وهو يحمل من الشجاعة ما نحن بحاجة إليه.

٦- د. برهان غليون:

د. غليون سوري الأصل، فرنسي الجنسية، يعمل أستاذاً لعلم الاجتماع في السوربون، له أكثر من عشرة مؤلفات.

يدرس قضية النقل الحضاري، حيث يصورها (البعض) أو يبسطها غاية التبسيط فيرى أن بإمكاننا أن نقلد الغرب لنكون مثله، فيرد د. غليون[1]: «إن هذا المأزق يتمثل بالاعتقاد بأننا لو أخذنا نفس مبادئ الأوروبيين لتقدمنا.

إننا بهذا الاعتقاد ألغينا التاريخ، وألغينا العلاقات التاريخية، بيننا وبين الغرب، وألغينا أيضاً كل صيرورة المسلسل التاريخي والاجتماعي، الذي أدى في أوروبا إلى ظهور الثورة الصناعية والثورة السياسية».

هذا المعنى يكرره في كتبه، فالأمر معقد وإلا لأخذت أمم الأرض بذلك وتقدمت بيسر وسهولة.

القضية الثانية التي يكررها د. غليون خصوصاً في كتابيه «حوارات من عصر الحرب الأهلية»، و«اغتيال العقل».. فهو يكرر كثيراً جداً أن

---

(١) الخطاب العدمي، فادي إسماعيل، طبعة أولى، ص٥٩.

الحاجة ملحة إلى إحياء التراث، والأخذ من الحضارة الغربية، ويشترط عدم الاكتفاء بعنصر واحد.

يقول د. غليون[1]: «من الوهم أن تعتقد جماعة أنها تستطيع أن تندمج في الحضارة من دون أن تحيي تراثها، إن بالتغاضي أو بالتخلي عنه، فالنتيجة لن تكون إلا انتقامًا أكبر للماضي من الحاضر، وتهديداً أعظم، لأي جهد تجديدي، كما أنه من الوهم أن تعتقد جماعة أيضًا أن تراثها بمفرده -مهما كانت عظمته- يمكن أن يحفظ لها استقلالها وحريتها، ونجاعتها التاريخية.

إن اكتساب التراث الحضاري الجديد، لا يشكل شرطًا أساسيًا لدخول التاريخ المعاصر فحسب، ولكنه شرط أساسي أيضًا، لإعادة الفاعلية والقيمة الجادة للتراث القديم.

إن مصير الأمم مرهون بمقدرتها على أن تجعل من تراثها -أي من ثمرة أجيالها الماضية وتراكماتها- رأس مال قابلاً للتوظيف في عمليات التجديد والتحضر الكبرى».

يمكن الزعم بأن الأمة يمكن أن تطير بجناحين: التراث والتحضر. إن د. غليون يعاود الفكرة مراراً ويقلبها على عدة أوجه، فيقول: هناك مشكلة مفادها[2]: «الاعتقاد بأن مجتمعنا لم يستطع أن

---

(١) حوار من عصر الحرب الأهلية، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م، ص٢٧٥.

(٢) اغتيال العقل، الطبعة السادسة، ١٩٩٢م، ص٣٦٤.

يستوعب «الحضارة الحديثة» لأن ثقافته وتراثه تقليديان، وهذا ينفي عن عملية الحضارة والتحضر كل طابعها الاجتماعي والتاريخي الصراعي. فهل لو طبقنا في بلادنا القوانين «اللبرالية» مثلاً، أصبح لدينا بالضرورة صناعة حديثة؟

نحن نقول بالعكس، لو طبقنا نفس الحلول، التي طبقتها المجتمعات الغربية، دون النظر إلى تغير الظروف التاريخية، وأهمها بالضبط تحول الغرب إلى «مركز للحضارة» يتحكم بآلياتها ووسائلها، ويصارع ليبقى المحتكر الأول لها، لوصلنا إلى ما وصلنا إليه اليوم.. أي زيادة التأخر والتبعية...

لا يعني هذا رفض «التحديث» وإنما يعني ربطه بمعيار واضح، اجتماعي وقيمي أو أخلاقي. باختصار، لا لتدمير الهوية، لا لفصل العرب عن العالم، ولا لأي سياسة أو خطة تطمس أحد قطبي التناقض، لصالح القطب الآخر».

القضية أحسبها واضحة، فهناك في مجتمعنا من هو زاهد في التراث، بل يرى فيه عقبة كبرى، ويسخر من الهوية، فالعالم صار قرية واحدة، ولا معنى للتشبث بالهوية الخاصة، ولذا فالحل في نظره سهل ميسور، نتجاهل التراث، ونهمل الهوية، ونندمج في حضارة اليوم.

وقد وجدت د. غليون يطرح أسئلة فيقول[1]: «ماذا نريد من الحضارة، وماذا نريده كمجتمع، وما هي أهدافنا؟

هل نحن نسعى إلى أن يكون لمجتمعنا «واجهة حديثة شكلية»، تجعله يبدو مشابهاً لغيره من المجتمعات الحديثة، أم نريد أن يكون له وظائف إبداعية وإنتاجية مشابهة -وليست مماثلة- لما لدى هذه الأخيرة؟

أي هل المقصود تحديث القائم والتراث أو هل أن تحديث التراث،يقدم حلولاً مفيدة، أم أن الحلول قائمة خارجه، وعلينا نحن أن نبدعها؟.. أسئلة جيدة، تستحق التفكير.

د. غليون لا يمل طرح القضية، ومن زوايا متعددة، فهو يقول مثلاً: إن التحديث العقلي لا يحل لنا مشكلة، لأنه يحذف الوعي، ويشرح ذلك فيقول[2]: «إنه يقوم على الاعتقاد بأنه إذا نجحنا في تبني مؤسسات مشابهة للمؤسسات العلمية والثقافية الغربية، وفي أن نصبغ أفكارنا وقيمنا وطريقة بحثنا بالصبغة العلمية، وصلنا إلى الحضارة، ودخلنا في المعاصرة، أي أصبح لدينا قيم وفكر وعلم مماثل لعلم الغرب وقيمه، وأصبحنا بالتالي متحضرين أو أصحاب حضارة، وخرجنا من دائرة الهامشية وانعدام الفعل.

---

(١) اغتيال العقل، ص٣٦٤.

(٢) المرجع السابق، ص٣٤٠.

ليست هذه إلا مسألة «مصطنعة» في نظرنا، وشكلية ولا قيمة لها، إذ النهضة الثقافية والفكرية، ليست مرتبطة بمماثلة أو مشاكلة الغرب، ولا تعني التوصل إلى تحقيق نفس الوظائف الاجتماعية أو الثقافية، بل نحن نعتقد أن هذه «المماثلة» هي السبب في إخفاق العقل العربي الحديث، وفشل النهضة الثقافية».

يتحدث بعد ذلك عما يسميه الثقافة الحية والثقافة الميتة، الثقافة الحية تكون -عادة- قادرة على إيجاد وإبداع حلول جديدة لكل وضع جديد.

أما الثقافة التي تعجز عن ذلك فهي ميتة أو «تكرارية»، تشتغل بمشاكل غيرها، وتعجز عن القيام بواجباتها، فتضطر لتركها إلى غيرها.. وينهي موضوعه قائلاً[1]: «وكلما تماثلت البنيات الثقافية العربية مع البنيات الثقافية الغربية وحاكتها، أصبحت -بالضرورة- أقل قدرة على إدراك خصوصيات مجتمعها، وفقدت بالتالي قدراتها الإبداعية، ومبرر وجودها». فهل يُقنع هذا متغربينا؟

المرجعية ونوعية النقل:

د. غليون مغرم بتحديد نوعية الشيء المطلوب نقله، عن حضارة الغرب، كما قاده ذلك للحديث بحرارة عن «المرجعية».

---

(١) اغتيال العقل، ص٣٤٠.

فعن نوعية الشيء المطلوب استيراده يكرر[1]: «من السهل استيراد الآلات والأجهزة والمنتجات المادية وغير المادية، لكن ليس من السهل ولا من الممكن استيراد «الفاعلية الثقافية»، لأن الثقافة هي التعبير الأساسي عن وجود الجماعة كجماعة موحدة، والشرط الأساسي لتحقيق استمرارها وتميزها وتاريخها، أي لإعطائها ذاتية مستقلة».

فالثقافة هي مانحة الهوية، وهي أيضاً صانعة الولاء، والأمة -أي أمة- قد لا تكون متحضرة، لكنها لا تعيش بدون ثقافة، واستقلالية الأمة رهن باستقلال الثقافة، فمن لا استقلال له ثقافياً، فكيف تتحقق له الاستقلالية؟!

أما المرجعية، فالناس في المجتمع الواحد يختلفون، فإذا حصل ذلك فلا بد من مرجعية يرجعون إليها لضبط الاختلاف، وفي ذلك يقول د. غليون[2]: «لا تستطيع أمة أن تتمتع بإرادة ذاتية وقوة معنوية ورؤية نظرية وقاعدة معيارية، إلا بقدر ما تنجح في تأسيس «مرجعية ثابتة» عميقة الجذور، مرتبطة بتاريخها أو بتجربتها التاريخية، ولا تستطيع جماعة أن تبني نشاطها، أو تؤسس وجودها على «مرجعية خارجية» مستمدة من تاريخ آخر، ومستقاة من ثقافة أخرى، أي لا تستطيع

---

(١) اغتيال العقل، ص١٦٠.

(٢) نفسه.

أن تجعل من «رمز استبعادها وتهميشها» مرجعًا لنهضتها الجديدة وتغلبها».

أعتقد أن المرجعية أمر أساسي، وليس من الترف.. ومن لا يجد مرجعية، سوف يضربه الاختلاف، حتى يجعل من الأمة هيئة أمم. يقول تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ (آل عمران: ١٠٣)، ويقول: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ (الروم: ٣٢)، ويقول: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ (آل عمران: ١٠٥).

ويمكن القول: بأن المرجعية هي السلك الذي يجمع حبات الأمة، فلا يجعلها تنفرط، فإذا سقطت المرجعية، فما الذي يجمع الأمة؟

قضية أخرى «كبيرة» تضبطها «المرجعية»، كلما شاهدت الاختلاف في الفضائيات العربية، يقفز إلى ذهني: أين المرجعية، ولمن ينبغي أن نعود، وما معيار الخطأ والصواب؟

لقد وجدت د. غليون يطرح القضية طرحًا دقيقًا، فيقول[1]: «ما هو مصدر معلوماتنا الصحيحة؟؟ أي ما معيار التمييز بين الحق والباطل؟ ومن الذي يكفل صحة معارفنا وأحكامنا العقلية وصلاحيتها؟

ونستطيع طرح الموضوع بطريقة أبسط، فنقول: كيف يكون الواقع

---

(١) اغتيال العقل، ص٢٢٠.

ما هو، أي مطابقًا لذاته، أي متسقًا، ومن ثم معقولاً ومقبولاً؟ ليس هناك مجتمع يمكن أن ينشأ أو يعيش دون أن يحدد لنفسه أسس «المعرفة اليقينية»، وشروط نمو هذه المعرفة، والتي هي أساس نشوء العلم وتطوره، وسبب ومبرر وجوده.. وعن هذه الأسئلة يصدر السؤال الأعم، الذي يتعلق بنا مباشرة، وهو: لماذا لم يتطور العلم الحديث في المجتمعات العربية المعاصرة، وكيف يمكن تجاوز العقبات، التي تقف أمام هذا التطور؟»

قد يقول إنسان: المرجع هو العقل، ولكنه يختلف، بل ما أكثر ما يختلف، فهل نرجع لعقلي أم عقلك، أم ماذا؟

قد يقول آخر: لنرجع إلى العلم، فهو مرجعنا، وهو الآخر مختلف أيضًا، وقد تولى د. غليون الرد والمناقشة فقال[1]: إن الحداثة تفترض أن الواقع «المطابق لذاته» هو الواقع الحديث، أو المساير للحداثة، أما مظاهر الحياة التقليدية وأنماطها فكلها ليست واقعًا، ولا تحمل انسجامًا.

إن الواقع التقليدي ليس له أي قوام حقيقي، وليس مبرراً، ووجوده عبارة عن مظهر من مظاهر اللاعقلانية والانحطاط والشذوذ، وإذن فـ«الحداثة» هي «معيار العقلانية والصحة»، فلا يمكن للمعرفة أن تكون صحيحة ويقينية إلا عندما يكون نموذجها هو «الواقع المطابق

---

(١) اغتيال العقل، ص٢٢٠.

لذاته »، أي الواقع المعاصر، ولما كان العلم أحد منتجات هذه « المعاصرة » فهو إذن معيار صحة أفكارنا عن الواقع، وبقدر ما تكون الأفكار مطابقة للعلم، تكون يقينية.

هذا الكلام يبدو -لأول وهلة- معقولاً مقبولاً، كما يبدو وكأنه يستعمل « المنطق الأرسطي » بما يحمل من صحة ومغالطة.

وأترك الجواب للدكتور غليون فهو يرى أن[1]: « العقلانية العربية هدفها ومطلبها، نقل العلم، والنظرة العلمية، إلى ثقافة تعتبرها من الأساس فاقدة له، وغير قادرة على إنتاجه. إذن مطابقة أفكارنا للعلم، هي قاعدة الموضوعية والعلم، كما هي مجسدة في نظم معرفية جاهزة، تضمن صحة هذه الأفكار ويقينيتها.

ونلاحظ هنا، كيف تصادر هذه المحاكمة - بالمعنى المنطقي- على المسألة الأساسية، التي ما كان من الممكن للعلم أن ينشأ بدونها، وهي التساؤل عن مصدر يقينية المعرفة العلمية نفسها، وهو التساؤل الذي قاد إلى تطور العلم، كثمرة لفلسفة ما قبل « علمية مؤسسة العلم ذاته كمفهوم ».

إن هذه « المحاكمة » تقول عمليًا: إن أصل المعرفة اليقينية « العلم » نفسه، وبذلك فهي لا تحرم نفسها فقط من التفكير في هذا العلم،

---

(١) اغتيال العقل، ص٢٢١.

والتحقق من المسعى العلمي، في كل مرة يسعى فيها الباحث إلى إدراك الواقع وتحليله، وإنما تضفي أيضًا على المعرفة العلمية صفة الحقيقة «المطلقة»، والمنزلة التي تشكل في ذاتها المبتدأ والمنتهى...

إنها تجعل من العلم معرفة «لاهوتية مقدسة» مفصولة عن الواقع الذي استمدت منه، وعن المجتمع الذي ظهرت فيه، وعن الذات التي أنشأته، وعن المطلب الذي وضع له».

مرجعية العلم:

إن الغرب مكتشف العلم، لم يعد يعتبره حقيقة يقينية، ولو اعتبره فنحن نبحث عن مرجع نعود إليه حين نختلف، فإذا كان العلم مما يختلف فيه، فكيف يكون مرجعًا؟

لقد هربنا من يقينية الأديان، فسقطنا في يقينية العلم، كما فعلت الماركسية، حين شطبت الأديان، ثم ما لبثت أن صارت دينًا، أكثر تشنجًا وتعصبًا، حتى حرمت قراءة الكتب المخالفة، وصادرت حرية المعارض كليًا، وهكذا تحولت إلى دين له طقوسه ورموزه، وحتى أنبياؤه، وصار قبر المعلم «لينين» مزارًا، وعلى زائره أن يقف باحترام، فلا يسمح له مثلاً وضع النظارات على رأسه، ولا التحدث ...إلخ.

لقد هربت الحداثة وأهلها من الأديان لتجعل من العلم دينًا جديدًا، له سدنته وطقوسه!

إنها تكفّر كل من لا يقبل «يقينية العلم» وصحة وسلامة الحداثة، وتُقْصيه بعيداً، وتتهمه بالرجعية والظلامية والعودة للقرون الوسطى، إنها جماعة «تكفير» جديدة، تكفر «وطنيًا»، وتبعد وتقصي كل من لا يشاركها الرأي والمعتقد، أنهم مكفرون جدد!

وأخيراً أجد من النافع المفيد أن نتساءل: هل نحن ننشئ علماً، أم نقتبس ونستهلك فقط؟ وهل نحن ننشئ حضارة أم نستهلك منتجات حضارة فقط؟

وأخيراً هل نحن بحاجة إلى مرجعية، نرجع إليها عندما نختلف أم لا؟ والسؤال الرابع والأخير: هل يمكن حل مشاكلنا بخلق عداء بين العقلية العلمية والعقلية الدينية؟

يقول د. غليون[1]: «إن مشكلة العلم لا تحل بخلق «عداء مطلق» بين وجود العقلية العلمية، والعقلية الدينية أو التقليدية، لأن معنى هذا أنه علينا أن ننتظر القضاء الكامل على الثقافة التقليدية، حتى نصل إلى اكتساب العقلية العلمية وهذا مناف للواقع، واقع العلم والثقافة في الغرب ذاته، فليس هناك ما يمنع تعايش الثقافة العلمية والدينية والأدبية، في كافة المجتمعات، القديمة والحديثة، على حد سواء، ويكفي في ذلك إلقاء نظرة على الحركات الدينية المتجددة في أمريكا».

---

(١) اغتيال العقل، ص٢٢٩.

الذي يمكن تصوره أن هناك حقيقة روحية، وحقيقة علمية، ولا تناقض بين الاثنين، إلا إذا أسيء فهم إحداهما أو كلاهما.

رأي شيخ الإسلام في التعارض:

لقد وجدت شيخ الإسلام ابن تيمية يرحمه الله، يدرس قضية التعارض بين القضايا العقلية والنقلية، ثم يضع ميزانًا لذلك[1] إذ يرى أن الحقائق منها ما هو شرعي (نقلي)، ومنها ما هو عقلي، وكل منهما فيه القطعي والظني، وهناك ثلاث قواعد تضبط ذلك:

١- إن القطعيين لا يتعارضان.

٢- إذا تعارض قطعي وظني يقدم القطعي، أيّاً كان مصدره.

٣- إذا تعارض ظنيان فعلى العقل أن يسعى للمفاضلة بينهما، وأن يأخذ بالأرجح.. منهج متوازن لا شطط فيه، أعتقد أنه مقبول لدى كل منصف.

ختامًا لقد وجدت الرئيس البوسني «علي عزت بكوفتش» يعمل مقارنة لطيفة بين الحضارة والثقافة، من حيث الأهداف والوظائف فيرى[2]:

---

(١) درء تعارض العقل والنقل، نقلاً عن: السلفية وقضايا العصر، د. عبد الرحمن الزنيدي، الطبعة الأولى، ص٢٠٢.

(٢) الإسلام بين الشرق والغرب، الطبعة الأولى، ص٩٤.

أن الثقافة تحتل تأثير الدين على الإنسان.. أما الحضارة فتمثل تأثير الذكاء على الطبيعة.. الثقافة تعني الفن، وأما الحضارة فتعني صناعة الأشياء.. الثقافة صنع مستمر للذات، والحضارة تغيير مستمر للعالم.. الثقافة استمرار للتقدم الإنساني، والحضارة استمرار للتقدم التقني.

الثقافة تقدم مستمر للذات، والحضارة اضطرار للاعتماد على المادة، وفرض لها على الإنسان.. الثقافة تستهدف التقليل من حاجات الإنسان، والتوسع في آفاق الحرية.. حامل الثقافة هو الإنسان، وحامل الحضارة هو المجتمع.

الثقافة تحتل القوة الذاتية، والحضارة تمثل قوة على الطبيعة.

الدين والقيم والفكر والآداب، من مكونات الثقافة. والعلم والتكنولوجيا والمدن والدول كلها تنتمي للحضارة..

وأخيرًا: فالحضارة ليست خيرًا بنفسها ولا شرًا، لذا فالمتحضر يمكن أن يكون مستعمِرًا ومستعبِدًا لأخيه، سارقًا لأقوات الشعوب الفقيرة، محطمًا لها، مشعلاً للحروب، مستغلاً تقدمه في تحطيم الآخرين، ومنعهم من التقدم، كي يظلوا سوقًا له ولبضائعه.

فالحضارة ومثلها التقدم، وصف وليس بحكم، فالمتحضر يمكن أن يكون ملكًا رحيمًا، كما يمكن أن يكون شيطانًا رجيمًا، وكذلك

التقدم، يمكن أن يكون باتجاه الخير والسلام، ومعاونة الشعوب الفقيرة، والأخذ بيدها، كما يمكن أن يكون وسيلة استعلاء ونهب وسلب، وإشعالٍ للحروب، وفرض لتجارة مثل تجارة الأفيون.

إن أوروبا الناهضة المتقدمة استعمرت كافة القارات، وخاضت من أجل ذلك في أنهار من الدم، وفعلت في المستعمرات ما يفعله الذئب في فريسته، وكان سلاحها تقدمها وملكَها أسباب القوة وتخلفَ الآخرين.

فليس التحضر أو التقدم بنفسه خيرًا أو شرًا، ولكن بما يحمل، وبما يحسن أو يسيء من تصرف.

والمتقدم والمتحضر –اليوم– هو من يلوث البيئة، بعشرات الأضعاف مما يفعله المتخلف.. فالمتقدم ليس ملكًا، والمتخلف ليس شيطانًا.

الأهداف الكبرى لخلق الإنسان

لو تساءلنا عن الأهداف الكبرى التي خُلق من أجلها الإنسان، ماهي؟ يمكننا جمعها في هدفين كبيرين: عبادة الله، وعمارة الأرض.

أولاً: عبادة الله تعالى:

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦).. والعبادة لغة: الانقياد والذل والخضوع[١].

يقول الفيروزأبادي[٢]: «العبادة: الطاعة، وهي أبلغ من العبودية، لأنها غاية التذلل، لا يستحقها إلا من له غاية الإفضال، وهو الله تعالى.. العبادة ضربان: ضرب بالتسخير، وضرب بالاختيار، وهو النطق، وهو المأمور به في قوله تعالى: ﴿ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ (البقرة: ٢١)، وقد ورد العبد والعبادة في القرآن على ثلاثين وجهاً...»

والمعنى الاصطلاحي للعبادة، لا يخرج عن المعنى اللغوي، وقد جعلها شيخ الإسلام ابن تيمية، اسماً جامعاً لكل ما يحبه الله تعالى ويرضاه، فصارت تشمل العبادات البدنية والمالية والقلبية.

والعبادة تطلق -عادة- على معنيين اثنين هما:

أ- **معنى واسع**: يشمل كل عمل مباح يفعله المسلم، يبتغي به وجه الله تعالى، وقد نُقل إلينا أن رسول الله ﷺ كان جالساً في نفر

---

(١) المعجم الوسيط، ٥٧٩/٢.

(٢) بصائر ذوي التمييز، ٨/٤.

من الصحابة، فمر بهم رجل، فذكر بعضهم نشاطه وهمته في العمل، وقالوا: يارسول الله لو كان هذا في سبيل الله! فقال ﷺ: «**إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة، فهو في سبيل الشيطان**»[1]. فالعبرة لحسن النية، وصدق التوجه.

وقد اشتكى بعض الصحابة من فقرهم، وأن الأغنياء يشاركونهم العبادة، ويزيدون عليهم بالصدقة. فقد أخرج مسلم في صحيحه: قال بعض الصحابة: «يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضل أموالهم، فقال ﷺ: **أليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به؟ إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة**، قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته، ويكون له فيها أجر؟! قال: **أرأيتم لو وضعها في حرام، أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال، كان له أجر**»[2].

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، ٧/٥٦، رقم الحديث ٦٨٣٥؛ والمنذري في الترغيب والترهيب، ٢/٣٣٥، ورجاله رجال الصحيح.

(٢) مسند الإمام أحمد «٢٠٩٦٢»، ٦/٢١٢؛ والمعجم الأوسط للطبراني ١/١٥١، الحديث ٣٠١.

فالحديث يخبر بأنواع من الصدقات.. كما في المسألة أبعد من ذلك، وهي قرب الرجل أهله، يكون له في ذلك أجر، لأنه يعف نفسه ويعف أهله.

فالعمل العادي المباح يمكن أن يصبح عبادة، ومن ثم يحصل صاحبه على أجر، ويمكن العكس بأن يقوم المسلم بعبادة، ويكون فيها مرائيًا منافقًا، فيحصل على الإثم.

وقد وجدت «محمد أسد» يتحدث عن شمول العبادة فيقول[1]: «العبادة في الإسلام ليست محصورة في أعمال من الخشوع الخالص، كالصلاة والصيام مثلاً، ولكنها تتناول كل حياة الإنسان العملية أيضًا، وإذا كانت الغاية من حياتنا -على العموم- عبادة الله تعالى، فيلزمنا حينئذ ضرورة أن ننظر إلى هذه الحياة في مجموع مظاهرها كلها، على أنها تبعة أدبية، متعددة النواحي، وعبادة الله في أوسع معانيها تؤلف في الإسلام معنى الحياة.. هذا الإدراك وحده يرينا أحكام بلوغ الإنسان الكمال، في إطار حياته الدنيوية الفردية، ومن بين سائر النظم الدينية، نرى الإسلام وحده يعلن: أن الكمال الفردي ممكن في الحياة الدنيا.

إن الإسلام لا يؤجل هذا الكمال إلى مابعد إدانته الشهوات الجسدية، ولا هو يعدنا بسلسلة متلاحقة من «تناسخ الأرواح» على

(١) الإسلام على مفترق الطرق، ص٢٠.

مراتب متدرجة -كما هو الحال في الهندوكية- ولا يوافق البوذية التي تقول بأن الكمال والنجاة لا يتمان إلا بعد انعدام النفس الجزئية، وانفصام علاقتهما الشعورية من العالم، كلا إن الإسلام يؤكد في إعلانه: أن الإنسان يستطيع بلوغ الكمال في حياته الدنيا الفردية، وذلك بأن يستفيد استفادة تامة من وجود الإمكان الدنيوي في حياته».

تصور جيد وشامل للعبادة في الإسلام.. وقد وجدت د.ماجد الكيلاني يحصي ثلاثة اتجاهات في العبادة: اتجاه ديني.. اتجاه اجتماعي.. اتجاه كوني[1].

والاتجاه الديني يتمثل في ممارسة الشعائر الدينية، بينما يتمثل الاتجاه الاجتماعي في علاقة الفرد بغيره، وضبط شبكة العلاقات الاجتماعية، أما الاتجاه الكوني فينظم علاقة الإنسان بالكون، ويتطلب معرفة جيدة به.. ويرى د. الكيلاني وجوب تكامل وتساند هذه الاتجاهات كلها، كي لا يصاب التدين بنوع من القصور.

أما إذا حصل انفصال بين هذه الاتجاهات، فحُصر مثلاً مفهوم العبادة بأداء الشعائر فقط، فهنا سينتج عن ذلك بعض الآثار السلبية، منها:

١- عدم الاهتمام بالاتجاهين: الاجتماعي والكوني، وعندها تنحسر العلوم الاجتماعية والكونية، أو تنحرف عن مسارها الصحيح، فيعمل كل واحد ضد الآخر.

---

(١) فلسفة التربية الإسلامية، الطبعة الثانية، ص٨٥.

٢- يفرز الفصل بين الاتجاهين الديني وغيره، فريقًا من المتعلمين، بعضه يكون متدينًا، لكنه يتصف بالسلبية والمسكنة (كما هو حال أهل التصوف)، وفريقًا من الاجتماعيين، يتصف بالانفلات.

٣- إن الفصل يمكن أن يخرج نماذج من المتدينين، تتصف بالتواكل والكسل والجبرية، على حين تتصف مجموعة من المهنيين بالمادية الاستهلاكية (وهذا بعض ما نعانيه اليوم).

٤- لقد أفرز الفصل بعض العاملين في الحقلين الاجتماعي والكوني، بحيث صاروا متمردين على القيم والأخلاق، وهذا مما يشعل الصراع والتطاحن داخل المجتمعات الإسلامية، فتتولد انقسامات كثيرة، بحيث ينشغل أفراد المجتمع بذلك، (وجل مجتمعاتنا اليوم تعاني من ذلك).

٥- إن الفصل يعطل رسالة الدين في الإصلاح الاجتماعي، ويعيقه عن محاربة الشر والفساد، بل قد يدفع بالدين ورموزه ليصبحوا عامل دعم للفساد، ومن هذا المنطلق نجد «المترفين» يفصلون بين الدين، وتأثيره في الحياة، ويريدونه طقوسًا بلا روح، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ

﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٧٧).

فمن أجل أن يكون المسلم من أهل البر، فلا تكفي الصلاة، بل ينبغي توفر الإيمان ودفع الأموال، إضافة لكافة العبادات، والالتزام بالوفاء بالعهود.. الخ.

ومما يوضح هذا «الفهم» أن أحد الصحابة، جاء لرسول الله ﷺ مبايعًا، وقد وصف حاله قائلاً[١]: أتيت رسول الله لأبايعه، فاشترط علي شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن أقيم الصلاة، وأن أؤدي الزكاة، وأن أحج حجة الإسلام –أي الأولى– وأن أصوم رمضان، وأن أجاهد في سبيل الله، فقلت يا رسول الله: أما اثنتان فوالله ما أطيقهما: الجهاد والصدقة، فإنهم زعموا أن من ولى الدبر –هرب من المعركة– فقد باء بغضب من الله، فأخاف إن حضرت تلك، جشعت نفسي وكرهت الموت. والصدقة، فوالله مالي إلا غنيمة وعشر ذود –أي غنم قليلة وعشر من الإبل– هن رسل أهلي وحمولتهم، فقبض رسول الله يده، ثم حرك يده، ثم قال: **لا جهاد ولا صدقة، فبم تدخل الجنة؟!** قال: قلت: يا رسول الله أنا أبايعك، قال فبايعت عليهن كلهن).

---

(١) مسند الإمام أحمد، ٨٠/١؛ والحاكم في مستدركه، ٨٢/٢، وقال صحيح الإسناد.

فالرسول ﷺ يرفض بيعة الرجل لأنه أراد التنصل من الزكاة، لقلة الأموال، ومن الجهاد، لأنه يخاف إن اشترك في الحرب أن يهرب، فيحق عليه غضب الله، لكن صاحب الرسالة ﷺ يشترط بوضوح تام، إما البيعة الكاملة أو عدمها، فالقضية لا تقبل المساومة ولا التجزئة.. وهذا الفهم الشامل المتوازن كان واضحًا كل الوضوح لدى جمهور الصحابة، وقد يكون ترجيح العبادة -بمعناها الضيق- والتوسع فيها جاء في عهد التابعين، ومن جاء بعدهم.

ب- **معنى ضيق**: الشق الثاني لإطلاق«العبادة» يقصرها على الصلاة والصيام والحج والزكاة، وهذا المعنى هو المتبادر إلى الذهن. والأصل في هذا المعنى هو النص الصحيح، ذلك أن العبادة غير معللة.

وقد نقل عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قوله: «لو كان الدين -أي العبادة- بالعقل، لكان مسح باطن القدم أولى من ظاهره».

ومعلوم أن العبادة مبنية على الحظر أي المنع، فلا يجوز أن نزيد أو ننقص فيها، وقد جاء نفر من الصحابة إلى بيت رسول الله ﷺ يسألون عن عبادته، فلما أخبروا كأنهم رأوها قليلة، فقال بعضهم: أصوم ولا أفطر، وقال آخر أقوم الليل ولا أنام، وقال ثالث: إنه سيعتزل النساء، فلما سمع رسول الله ﷺ بذلك قال لهم: «**أنا رسول الله، أعرفكم بالله، وأتقاكم له، أصوم وأفطر، وأقوم الليل وأنام،**

وأقرب النساء، فمن خالف سنتي فليس مني»[1].

فالعبادة أساسها النص الصحيح، وهي تقوم على الاتباع دون الابتداع.. أما الحضارة فتقوم على الإبداع دون التقليد، لكنا عكسنا الأمر فصرنا مبتدعين في العبادة، مقلدين في الحضارة، فلا سلمت لنا العبادة، ولا أبدعنا شيئًا في الحضارة.

ثانيًا: عمارة الأرض:

إن الهدف الثاني لخلق الإنسان أن يعمر الأرض، كما قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود: ٦١).

وعمارة الأرض تتطلب معرفة جيدة بعلوم «الحياة»، بل آخر ما توصل إليه الإنسان في هذه العلوم، التي تتطور يومًا بعد يوم.

وقد قسم الفقهاء «الفروض» إلى قسمين: فروض أعيان وفروض كفاية.. وفروض العين مثل الصلاة والصوم.. وأما فروض الكفاية فهي فروض عامة، فإذا قام بها البعض سقطت عن الأمة، لكن إن أهملها الكل أثموا.. فكل علم نافع، أو صناعة مفيدة، فلابد أن يوجد من المسلمين من يحسن أداءها، وإلا حصل الإثم للجميع، لكن إذا جرى تعيين فرد لها، صارت بالنسبة له من فروض العين. ومن العلماء من يقدم فروض "الكفاية" على العين، لأهميتها بالنسبة للأمة.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، الحديث٤٧٧٦؛ ومسلم، كتاب النكاح، الحديث٣٣٨٩؛ وأحمد في مسنده، الحديث١٣١٢٢.

وعلى ذلك، فعلى كل من يهتم بعمارة الأرض، أن يواكب تطور العلوم والصناعات، كي يستطيع فعلاً أن يعمر. وللأسف فإن ما أطلق عليه ابن خلدون «علم العمران» ذهب معه، ولم نجد من يهتم به.

لقد تحولنا إلى مستهلكي حضارة، ولم نكن من صناعها، فمن السهولة بمكان أن يكون الإنسان «زبونًا» يأخذ من منتجات الحضارة ما يحب، ويدفع الثمن، ولكن من الصعوبة أن ينتج حضارة أو يساهم في إنتاجها بجدية أو فعالية.

إن عمارة الأرض أو صنع حضارة، يتطلب الكد والكدح، والسهر المتواصل، والأخذ بناصية العلوم والصناعات، ومن لا يحسن ذلك فهو يعيش على «الهامش».

لو قمنا بفحص لهذه المليارات من البشر، التي تدب على وجه الأرض، فماذا نجد بمقياس العبادة الصحيحة، والعمارة المفيدة النافعة؟

١- سنجد ملايين قليلة جداً تعبد الله تعالى كما أراد وأمر، وأقل منها تشتغل في عمارة الأرض.

٢- سنجد ملايين كثيرة في الغرب واليابان مثلاً لا تعرف الله، وإن عرفته لا تعبده كما أمر ، لكنها تفني عمرها في عمارة الأرض، وقد تشتغل في خرابها، بما تنشر من معدات القتل الجماعي، وأسلحة ذرية وهيدروجينية وغيرها.

٣- ألوف الملايين من البشر لا تعبد الله، كما أمر، ولا تشتغل بعمارة الأرض، والكثير منها تطلب الطعام والدواء من غيرها، فلا الله عبدت ولا عمارة للأرض أشادت، ولم تحقق شيئًا مما خلقت له، وللأسف فهي تبلغ مليارات من البشر، ومن هنا جاءت متاعب البشرية، أو بعض متاعبها.

أبو حامد الغزالي ونظريته في العلم:

أبو حامد من فوارس العلم والثقافة (١٠٥١ - ١١١١م)، له نظرية في العلم، نشرها في ثلاثة من كتبه، متى جمعت إلى بعضها كونت فكرة واضحة عن العلم الشرعي والدنيوي، وعلاقة أحدهما بالآخر.

أ- في كتابه (إحياء علوم الدين)، قسم العلوم إلى شرعية، وهي ما استفيد من الأنبياء عليهم السلام، وغير شرعية، وهي ما أرشد إليهم العقل، كالطب والرياضيات وأمثالها. وغير الشرعية هي من فروض الكفاية، فإذا خلا منها بلد سارع إليه الهلاك[١].

ب- في (أيها الولد) يتم فكرته قائلاً: من يقتصر علمه على العلوم الدنيوية، دون الشرعية، فعمره يضيع فيما لا ينفع في الآخرة[٢].

جـ- في كتابه (ميزان العمل) يقول: ... من يقتصر على علوم الدين وحدها، فإنه لا يفهم من الدين إلا قشوره، بل خيالاته وأمثلته،

---

(١) الإحياء، ١/١٧.

(٢) أيها الولد، ص٢٢.

دون لبابه وحقيقته[1]، إذ لا تدرك العلوم الشرعية إلا بالعلوم العقلية، فإن العقلية كالأدوية للصحة، والشرعية كالغذاء[2].

من يتطلع لدور في الحضارة، فلا بد أن يكون له حضور متميز، كما ينبغي أن تكون لديه فكرة واضحة تجاه الكون وخالقه والحياة.

ويطرح «اشفيتسر» في كتابه «فلسفة الحضارة»[3]: «إذا أنتج المفكرون في عصر من العصور نظرية في الكون ثمينة، فإنها تتداول بين الناس تداولاً يؤدي إلى ضمان التقدم، وإن عجزوا عن ذلك، بدأ الانحلال يدب على نحو أو آخر، فكل نظرية في الكون، تجر وراءها نتائجها التاريخية».

والقرآن الكريم يربط بين عمارة الأرض والأخذ بهدي الأنبياء، عليهم السلام، كما أن البعد عن هذا الهدي السماوي يجلب فيما يجلب التعاسة والحروب، وسقوط الحضارة.

يقول تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ (النمل:١١٢).

إن قصص القرآن في مجمله يكشف: كيف تقدمت الأمم، وتوسعت الحضارات، حين أخذت الأمم بهدي السماء، وماذا أصابها من تأخر وفساد وسقوط للحضارة حين تركت شرع الله، وفضلت عليه شرائع وضعية.

---

(١) لي تحفظ، فالدين فيه مهم وأهم، لكن ليس فيه قشور ولباب.

(٢) ميزان العمل، ص١٢٤.

(٣) فلسفة الحضارة، ص٦٩.

التغيير في الحضارة

المتابع للحضارات الإنسانية يجد حضارة تقوم وتزدهر، ثم تشيخ وتموت، مفسحة الطريق لغيرها، وقد عد المؤرخ توينبي ستًا وعشرين حضارة، كان هذا شأنها.

والسؤال: هل يمكن معرفة قوانين التغيير، التي تحكم سير الحضارة؟ وهل يمكن التنبؤ بما يمكن أن يحصل للحضارة من ارتفاع أو سقوط؟

والسؤال الثالث: ما هو واجب المؤرخ ومفسر التاريخ؟

لا نجد أجوبة متفقًا عليها، فمؤرخ مثل «فيشر» يرى أن الحوادث تتعاقب، وكل طارئ يتبعه طارئ، كما تتبع الموجة موجة أخرى، لذا فهو لا يرى جدوى من البحث عن نظام التغيير[1].

وهناك من يرى أن مهمة المؤرخ تنحصر في سرد الوقائع وتسجيلها، بعد التحقق من صحتها، دون حاجة للبحث عن النظم التي تربطها، وهؤلاء يقولون عادة: قد توجد للتغييرات الحضارية صور جامعة، تربط بعضها ببعض، ولكن محاولة كشفها ثم تعليلها ليس من واجب المؤرخ، فقد يقوم بذلك عالم الاجتماع أو الفيلسوف. وهؤلاء لا يرضيهم من يشتغل بتفسير التاريخ، ورصد حركة الحضارة، من

---

(١) في معركة الحضارة ، د. قسطنطين زريق، ص ١٤٧.

أمثال شبنجلر وتوينبي وثورنثروب، وأمثالهم، ويذهبون لأبعد من ذلك حين يستخفون بالنتائج التي توصلوا إليها.

والذي لا جدال فيه، فإن عالم الاجتماع يحسن التعليل للوقائع والمتغيرات الحضارية ، لكن ذلك لا يفقد المؤرخ هذه القدرة والقابلية، مادام يدرس التاريخ وحركته، ويتتبع تحولات الحضارة، إذن ليقل عالم الاجتماع ما عنده، وليقل المؤرخ ما عنده، دون أن يحجر أحد على أحد، فالميدان فيه فسحة للاثنين ولغيرهما.

والسؤال: هل يمكن أن نربط بين وقائع التاريخ والنتائج ارتباطًا «كليًا» بكل ما تتضمنه هذه الفكرة[١]؟

هناك من يجزم بإمكانية ذلك، وأن ما يحدث يمكن توقعه، بعد مراعاة الظروف التي أحاطت به، وهنا يفترض التسليم بوجود «قوانين» عامة، تحكم حركة الحضارة والتاريخ، فإذا عرفت هذه القوانين، عندها يمكن، أو لنقل يسهل التنبؤ بالمستقبل.. وأصحاب هذه التوجه يلحون على اكتشاف «حركة المجتمع»، كما يطالبون المؤرخين بذلك.

أما «إشبنجلر»[٢]فهو يؤمن بالفصل بين الحقائق التاريخية والحقائق الطبيعية، ومن ثم فإن المنهج الطبيعي سيقصر عن فهم وتفسير التاريخ

---

(١) في فلسفة الحضارة، د. عفت الشرقاوي، ص١٤٩.

(٢) مؤلف ألماني معروف (١٨٨٠-١٩٣٦م)، ألف «انحطاط الغرب» فأحدث دويًا، وانتشر انتشارًا واسعًا (في معركة الحضارة، د. زريق، ٦٠).

البشري، ولذا فالمنهج الوحيد الذي يوقفنا على حقائق التاريخ الإنساني، هو المنهج التاريخي[1]. وقد تلقف الماركسيون «المنهج الطبيعي»، وطبقوه في «المادية التاريخية»، التي اعتبروها علم الاجتماع الخاص بهم، وبناء على ذلك فقد فسروا التاريخ بأنه «صراع للطبقات» من بعد الشيوعية الأولى، وحتى الشيوعية الثانية.

ومما قالوه، ونادوا به[2]: «إذا عرفنا الأسباب، وأثرنا عليها، أمكننا خلق الظواهر، التي يريدها المجتمع، أو عرقلة نشوء الظواهر الضارة، أو غير المرغوب بها، والنضال ضدها...».

إلا أن الفكرة قوبلت بهجوم شديد، من قبل بعض مفسري التاريخ، على اعتبار أن لكل حدث تاريخي خصوصيته وفرديته، إذ التاريخ لا يعيد نفسه.

كما قرروا أن الأحداث والوقائع التاريخية متشابكة ومعقدة، بحيث يصعب استخدام العلاقات الثابتة بين مجموع منها -كما هو الحال في العلوم الطبيعية- فحوادث التاريخ غير متشابهة، ولا متكررة حرفيًا.

أما «المثاليون» فردوا الفكرة، بحجة أن التاريخ يتصل اتصالاً وثيقًا بالإنسان، وهو حر ولا يخضع لمنطق الحتميات.

---

(١) الفلسفة الاجتماعية، د. رشوان، ص١٥٨.

(٢) في فلسفة الحضارة ، د. عفت الشرقاوي، ص١٥٠.

ويمكننا القـول: بأن المنـهج الطبـيـعي، القـائم على رصـد الظـواهر واستنبـاط قانون يشملهـا، هذا المنهج يصعب تطبيقه على الإنسـان وحضـارته، فالأمم في تقدمها وتخلفهـا، لا تخضع لقانون واحـد صارم، ولا تحكمهـا نظرية واحدة، لذا رأينا تفسير التـاريخ يعتـمد إما أحـكامًا عامة أو نظرية فردية.

لكـن العــمـل في هـذا الميــدان نبــه الأذهان إلى ضـرورة الربط بين الحوادث، متى تشابهت، بهدف الإفادة من الماضي، لمعرفة ما يحدث في المسـتقـبل. فقـيام الحضـارات وسقـوطها، لابد أن يحمل أسبـابًا متشابهة على الأقل، وبذا يفيد من هذا الجانب.

هناك أمـر من المفيـد ذكـره، أن الذين اشتـغلوا في تفـسير التـاريخ وحركة الحضارة، اعتمدوا «الواقع التاريخي للغرب»، ثم حـاولوا فرضه على العـالم -كما فعلت الماركسية مثلاً- فهي وليدة البيئة الغربية، وقد تأثرت بما فعلته الرأسمالية، فصاغت نظريتها، ثم عـممتها على العالم، وفي كل العصور، وعلى كافة الأقطار، وزادت بأن تصورت أن «حتمية» تحكم العالم كله في سيره الحضاري، وهنا كان المقتل!!!

ليس كل ما حدث في أوروبا يجب أن يحدث في العالم، ولكن من المشهود له والمسلم به أن الماركسية أجادت في نقد الرأسمالية أكبر وأعظم إجادة، بل يمكن القـول: بأنه النقـد الأفـضل.. وإن سـقطت

الماركسية -لأي سبب- فإن نقدها للرأسمالية لم يسقط، وعلى رجال الفكر الرأسمالي أن يفيدوا من ذلك النقد، ولا يمنعهم سقوط الماركسية من ذلك، فالممارسة شيء، والنقد للرأسمالية شيء آخر.

وقبل أن أختم الموضوع لا بد من الإشارة إلى وجود «اتجاه تطوري تاريخي»[1]، يرى أصحابه أن السير الرتيب للإنسانية وحضاراتها، لا يمكن أن يكون اعتباطيًا، أو خاضعًا للمشيئة الفردية، أو الأهواء والصدف، بل يقع في مراحل متعاقبة، يضبطها وينظمها قانون، يجمع في ثناياه وسطوره كل تاريخ الإنسانية. هذا الاتجاه ظهر في القرن التاسع عشر.

والإنسان يتمنى ذلك، كما يتمنى عدم تكرار السقطات.. فلو أمكن تحديد أسباب سقوط الحضارات بدقة، وأمكن من ثم تجنبها أو بعضها، فسيكون نافعًا ومفيداً، أما أن تسقط حضارة في مشكلة، ثم تأتي حضارة فتسقط في ذات الإشكال، فهذا هو المطلوب الهروب منه، وعدم الوقوع فيه.

بالمثل فما تنتجه حضارة من فكر جيد، أو فن رفيع، أو تنظيم حسن، فكل ذلك وأمثاله ينبغي الإشادة به أولاً، والإفادة منه بعد ذلك، وبدون حساسية.

---

(١) الفلسفة الاجتماعية، د.حسين رشوان، الطبعة الثانية، ص١٦١.

أهم العوامل المؤثرة في التحضر

ابتداءً أود الإشارة إلى أن «التحضر» وصف وليس قيمة، فالتحضر بنفسه لا يحمل كل الخير، بل يمكن أن تكون الشعوب المتحضرة وبالاً على البشرية، حين يصير التحضر وسيلة استعمار واستعباد ونهب لثروات الشعوب، وتقييد لحريتها.. كما علمتنا الأيام أن المتحضرين هم من أشعلوا الحروب، وخاضوا بالدماء حتى «الركب»، ومازالوا يتلاعبون بشعوب العالم الفقيرة، يهبطون بثرواتها وسلعها إلى أسفل سافلين، ويرفعون بضائعهم يوميًا، حتى استحوذ ٢٠٪ من سكان العالم على ٨٠٪ من ثرواته، ومازال النهب والسلب على قدم وساق، حتى ازداد الأغنياء غنى، كما ازداد الفقراء فقراً. وديون العالم الثالث خير شاهد، فهي اليوم عاجزة حتى عن دفع الفوائد.

وتلويث البيئة -اليوم- من نصيب المتحضر، بأكثر من الفقير ألوف المرات. لذا أود أن أكرر بأن التحضر وصف وليس قيمة. وقد حاولت جمع العناصر المؤثرة في التحضر، فجمعت أكثر من عشرة عناصر مثل: عامل الجنس (العرق)، العامل الاقتصادي، العامل الجغرافي، عامل العقيدة، عامل المعرفة، الفتوحات العسكرية، الفرد البطل أم المجتمع، شبكة العلاقات الاجتماعية، عامل الثقافة والفكر، الرغبة في التحضر، البيئة الطبيعية للتحضر. وسوف أستعرض هذه العوامل،

بما يسمح به البحث من الاختصار والإطالة والمناقشة، ثم أتحول بعد ذلك إلى حركة التحضر ومساراتها، بإذن الله تعالى.

اتجاهات التفسير:

لعل من المفيد أن أشير لوجود مدرستين في تفسير التاريخ، وضبط حركة التحضر: مدرسة تريد مزيداً من العوامل مترادفة متعاونة، يكمل بعضها بعضاً، ومدرسة تكتفي بعامل أساس واحد، لتفسر به التاريخ، وتضبط به مسار الحضارة. ولكن أتباع هذه المدرسة، لم يتفقوا على عامل واحد، بل كل اختار عاملاً، وجعله قطب رحاه، لذا سأمر عليها بشيء من الاختصار غير المخل.

أولاً: عامل الجنس (العرق):

لا يجادل أحد أن البشرية تتكون من أجناس مختلفة، يتميز بعضهم عن بعض، وأنها خاضت حروباً وصراعات ضد بعضها، كما حارب أبناء الجنس، بل أبناء الأمة بعضهم بعضاً.

فهم يتفاوتون في الرضى والإبداع، في الفكر والقناعات، وكل جنس واتته فرصة أقام حضارة تناسبه، وتناسب عصره. وقد شاع في القرنين السابع عشر والثامن عشر فكرة اختلاف الأجناس، وأن بعضها أرقى وأفضل من بعض، لكن الذي يصعب قبوله أن ينادي شعب بأنه المؤهل الوحيد لبناء حضارة، وأن شعباً آخر لا يستطيع ذلك، ولو واتته كل الفرص.

وسأستعرض بعض الأقوال، مع بعض التصورات الغريبة التي تتصاعد منها أبخرة العنصرية، والنرجسية الغليظة.

لقد كتب الفرنسي «جوبينو»[1] المتوفى عام (١٨٨٢م) رسالة حول عدم تساوي «الأجناس»، وأن الآريين وحدهم بناة الحضارة، والمحافظون عليها (وهو ماكانت النازية والفاشية، تبشر به ليل نهار).

أما «كريستيان لامس»[2] فيرى أن الآريين يتفوقون على الساميين في عقولهم وخواصهم.

أما «جوزيف آرثر، وهوستن»[3] فيرون أن بعض الشعوب من الأجناس «الراقية» تتقدم، على حين تظل أجناس أخرى محكومة اجتماعيًا وثقافيًا بميراثها العنصري. وقد انتهوا –كالعادة– إلى أن كافة الحضارات من عمل الآريين. أما النازية فقد تكون أقوى مَنْ طرح فكرة «النقاء العنصري»، معتبرة الاختلاط بين العناصر والأجناس المختلفة سببًا للقضاء على الحضارة وإفسادها.

وكل من يتحدث عن تفوق جنس على غيره، لابد أن يذكر اليهود، فهم معجبون بأنفسهم إلى أبعد الحدود، ويعيشون وهمًا مخيفًا حين يعتقدون أن الله تعالى قد اختارهم من بين كافة الشعوب، وأنهم الأذكى والأقدر، ولولاهم لحل بالعالم كارثة، حتى دماءهم تختلف عن دماء البشر.

(١، ٢، ٣) في فلسفة الحضارة الإسلامية، د. عفت الشرقاوي، ص١٥٤.

يقول «مارتن بوير» -وهو مدير جامعة، ورجل اجتماع-[1]: «إن الإسرائيليين شعب فريد، يختلف عن بقية الشعوب الأخرى، فهو الشعب الوحيد الذي يعتبر شعبًا، وفي الوقت نفسه يعتبر مجتمعًا دينيًا، وكل من يقطع العلاقة بين هذين العنصرين، يقطع حياة إسرائيل نفسها».. والسؤال: ما الدليل على صحة هذا؟

وهل يهود روسيا وأوروبا والفلاشة من أثيوبيا، ويهود الهند وسيرلانكا واليمن، يشكلون شعبًا واحدًا؟

ويقول «آحاد هعام» وهو اسم مستعار للكاتب الروسي «أشرغنزبرغ»[2]: «من الطبيعي أن نسلم بحقيقة وجود درجات كثيرة في سلم الخليقة مرورًا بظهور الكائن غير العضوي، فالنباتات، والمخلوقات القادرة على النطق، يتقدمها جميعًا الجنس اليهودي».

ما الدليل العلمي على ذلك؟

وأختم هذه «النقول» بنص للكاتب الصهيوني «يوسف حييم بريبر» يتساءل عن هذه «النرجسية» الغريبة، فيقول[3]: «من أين أتى هذا الاحتقار من جانب اليهود للأغيار، والشعور بالسمو عليهم؟ هل كان اليهودي عديم الشعور حقًا؟ وميتًا إلى درجة لم يشعر معها أن

---

(١) الصهيونية حركة عنصرية (مؤتمر طرابلس)، الطبعة الأولى، ص٤٨.

(٢) المرجع السابق، ص٣٦.

(٣) الشخصية اليهودية الإسرائيلية، د. رشاد الشامي، الطبعة الأولى، ص٣٢.

حياة الأغيار -أي غير اليهود- أكثر غنى، وأكثر جمالاً من حياته؟ إن هذا مستحيل، ولا نستطيع أن نصدق هذا، فإذا كان هناك احتقار للأغيار، فلم يكن ذلك سوى حسد طبيعي، يشعر به الفقراء تجاه الأغنياء، والرهبان تجاه الفرسان، والعاجز تجاه القادر، إن هذا الاحتقار لم يكن سوى استسلام لنصيبنا في الدنيا، وأحياناً نوع من العزاء لآمالنا في العالم الآخر، يتلوه صرير أسنان، وغضب داخلي، عن وعي أو دون وعي».

تسويق العنصرية وتبرير الاستعمار:

حاول بعض العنصريين أن يسوق نظريته في العالم، ويغطيها أو يحجبها ببعض المغالطات، ثم ليفلسف استعمار الإنسان لأخيه الإنسان.. تقول النظرية[1] ما يلي:

١- العروق مختلفة متباينة، ولكل صفاته المحددة، التي تميزه عن غيره.

٢- هناك ارتباط وثيق بين الصفات الجسدية والروحية والعقلية، بحيث يمكن الاستدلال من الصفات الجسمية، على الصفات الأخرى.

٣- العروق ليست مختلفة فقط، بل متفاوتة، أفضلها وأرقاها وأنقاها العرق «الآري» «الفرع النورديكي»، وأدناها وأحطها الأفارقة السود.

---

(١) نظريات إسلامية في مشكلة التمييز العنصري، عمر عودة الخطيب، الطبعة الثانية، ص٨٥.

ولي على هذه النظرية أكثر من تحفظ:

أولاً: العروق اختلطت لأكثر من سبب، والبحث عن عرق لم يختلط شبه مستحيل.

ثانيًا: الارتباط أو الربط بين الصفات البدنية والروحية والعقلية، لا أساس له، فالإنسان يتأثر بالبيئة، ويكتسب الكثير من العلوم والمعارف، فيختلف ذكاؤه الفطري بثقافته، حتى يصعب الفصل بينهما، فليس كل أبيض ذكي، ولا كل أسود بليد، تلك قضية يستحيل إثباتها أو تصديقها.

ثالثًا: اختلاف الأعراق قضية، وكون العرق الآري أرقاها وأنقاها، قضية أخرى يصعب التسليم بها، والأبيض الآري لو عاش الظروف التي يعيشها الأفريقي بفقره وأميته لكان أسوأ منه.

ولو عاش الأسود في مجال آخر، بعيداً عن الفقر والأمية والتخلف، لتجاوز الأبيض، وتفوق عليه، وطلاب البعثات في الغرب يثبتون ذلك يوميًا.

تسويق العنصرية لدى تلاميذ «دارون»:

تلاميذ دارون درسوا النظريات العنصرية، لكنهم زادوا في الطنبور نفخًا -كما يقال- وقد طرحوا نظريتهم على الوجه التالي[1]:

---

(١) نظريات إسلامية في مشكلة التمييز العنصري، ص١٠٥.

١- البشر مختلفون، كما تثبت ذلك سماتهم البدنية والعقلية.

٢- إن «البعض» منهم أصلح بالطبع، ولذا فهم أرقى وأرفع شأنًا.

٣- بعض الأجناس والأمم أصلح بالطبع، ولذا فهم أرقى وأرفع.

٤- إن الطبيعة والتطور صنعا البشر، على هذه الشاكلة، ولذا فإن بعض العناصر والأمم يجب أن تسود، و«البعض» يجب أن تكون مسودة وخادمة.

الطبيعة العمياء لم تصنع بشرًا ولا فأرًا ولا ضفدعة، والتطور لم يصنع ذلك، هكذا يعتقد جميع أصحاب وأتباع الديانات السماوية.

أما الفقرة الأخيرة فأشم منها روائح الاستعمار العفنة، والتي تزكم الأنوف، وكان بالإمكان أن تكون العبارة هكذا «... لذا من واجب الأمم المتقدمة والمتحضرة، أن تساعد وتعاون الأمم الثانية، وتأخذ بيدها» لا أن تستعبد وتنهب خيراتها ومواردها.

القضية الأخرى: لا نصدق أن هناك أممًا أرقى وأصلح بالطبع، إذ لا دليل على ذلك، وكل جنس -وكل أمة- واتته فرصة تحضر اهتبلها وتقدم، ولو درست حضارات العالم قديمها وحديثها، لوجد مصداق ذلك.

كذلك لا نسلم ولا نصدق بوجود أعراق شريفة وأخرى وضيعة، إذ لا مقياس للشرف والوضاعة، وكل أمة يمكن أن تصف نفسها

بالشرف، وعدوها بالوضاعة. فما مقياس الشرف والوضاعة، لدى تلاميذ المعلم «دارون»؟

ثانياً: العامل الجغرافي:

الإنسان قديمًا كان يسكن ويعيش قريبًا من الماء، ليتزود منه ويسقي حيواناته وزرعه، أما اليوم فلديه آلات تدفع بالماء بعيداً، ويبدو أن الواقع القديم حمل البعض من مفسري التاريخ، ومن الراصدين للتحضر، للربط بين التحضر والموقع الجغرافي، فجل الحضارات القديمة قامت في أحواض الأنهر، فجاء من يعتبر العامل الجغرافي ذا أثر بالغ في التحضر، ومن هنا راح يدرس الأرض وتضاريسها، والموارد وحجمها. ثم عرج البعض على المناخ، ليصل في النهاية إلى أن هذه العوامل تشق لأصحابها طريق التحضر، وسبل التمدن، وهي تفرض على أهل القطر السير في مقدمة القافلة أو مؤخرتها، وبفضل هذا العامل اختلفت الحضارات.

ولما كانت طبيعة الصحراء مثلاً تختلف عن السهول، لذا فحضارتها تختلف كذلك.. وهكذا تختلف البلاد الجبلية عن الأرض السهلة فتختلف حضارتهما، كذلك تساهم وفرة المياه وشحها، حرارة الأرض وبرودتها، جفافها ورطوبتها.. .إلخ.

لقد ركزوا على العامل الجغرافي، لكنهم عادوا فاختلفوا، فمنهم

من قدم المناخ، فجعله العامل الأول، ومنهم من قدم الأرض وجدبها وخصبها، ليأتي من يتعلق بالطرق والمسالك...

ولا يمكن إنكار أثر العامل الجغرافي في تكوين وتلوين الحضارة، لكن العيب الكبير يتمثل هنا بتجاهل الإنسان، وهو صانع الحضارة، فالحضارة أولاً جهد بشري، يستخدم فيه الإنسان المواد المتوفرة، لذا لم تقم الحضارة في جميع أحواض الأنهر، بل في بعضها دون بعض، كذلك نجد بلاداً كثيرة الأمطار، غنية الموارد، الشمس مشرقة فيها طوال العام، ومع ذلك مازالت تنتظر دورها في الحضارة، والذي قد يطول قرونًا.

هذه اليابان مساحتها بقدر مساحة بعض البلاد العربية، ثلاثة أرباع أرضها جبلية، مناخها قاري، حار صيفًا، بارد شتاءً، مواردها شحيحة، يعيش فيها أكثر من (١٢٥) مليون من البشر.. وبفضل الإنسان الياباني، فقد تخطى كل المصاعب، فكان هذا البلد مثالاً للإنسان الجاد المنتج المتغلب على المصاعب.

لقد عوض الإنسان الياباني كل نقص في موارد بلده، وهناك شعوب تملك كل الموارد، وتعيش تحت خط الفقر.. فالإنسان قبل الأرض، وقبل المناخ، لأن الحضارة صناعة بشرية، قبل أن تكون شيئًا آخر.

ثالثًا: العامل الاقتصادي:

يعتقد الماركسيون أن العامل الاقتصادي، هو المؤثر والموجه للأحداث، ومنها التحضر، فكل العلاقات الاجتماعية والتشريعات والنظم والدين، كلها تتأثر بالعامل الاقتصادي، نشوءاً وتطوراً، وهو «الباعث» لكل مكونات المجتمع، الفكرية والمادية، وكل عامل آخر فهو ثانوي.

فالعلاقات الاقتصادية التي تتمثل بها أساليب الإنتاج هي الأساس، وكل تغير في أشكال الحضارة فهو عائد في أصله إلى تبدل في وسائل الإنتاج، وليس لشيء آخر.

وقد كتب «ماركس» رسالة إلى «ف.أنتكوف» عام ١٨٤٦م تصور خلاصة فكره، وما توصل إليه بشأن الإنسان وحريته واختياره، لقوى الإنتاج فقال[١]: «... ما المجتمع أيًا كان شكله؟ إنه وليد النشاط المتبادل الذي يقوم به الناس.

وهل لهم حرية اختيار هذا الشكل أو ذاك من المجتمع لأنفسهم؟ لا، بكل تأكيد.. إذا فرضت وجود حالة معينة من التطور في «قوى الإنتاج» كان لديك شكل معين من أشكال التجارة والاستهلاك، يطابقه نظام اجتماعي، وتنظيم للأسرة والطبقات، وبعبارة موجزة، كان لديك مجتمع مدني، يتفق وهذا الشكل... ومن العبث أن نضيف أن الناس غير أحرار في اختيار قواهم «الإنتاجية» وهي الأساس

---

(١) التفسير الاشتراكي للتاريخ، أنجلز، ترجمة البراوي، الطبعة الثانية، ص١٢٠.

الذي يقوم عليه «تاريخهم» كله، لأن كل قوة إنتاجية هي قوة مكتسبة، أي هي ثمرة فعل ونشاط سابق...».

إن وسائل الإنتاج هي العامل المؤثر، وإليها -تحديداً- تعود كافة التغيرات من اجتماعية وسياسية وتشريعية وفكرية. وفيها ينبغي البحث[1] «لا في أدمغة البشر، ولا في تحسن إدراك الإنسان للحق الأزلي وللعدل، بل في «أساليب الإنتاج» والتبادل، يجب أن يبحث عنها في اقتصاديات كل عصر، لا في فلسفته».

وبقراءة هذا «النص» يمكن أن يخرج القارئ بما يلي:

أ- إن المجتمع البشري، يرسم وجهته ويشكله النشاط الاقتصادي.

ب- ليس للإنسان حرية اختيار شكل مجتمعه، بل ذلك متروك لقوى الإنتاج، فهي وحدها تستطيع ذلك.

جـ- كافة الأنظمة الاجتماعية، ومنها الدين، ونظام الأسرة، ونظام الطبقات، والنظام المدني والسياسي، كلها لا يختارها الإنسان، وإنما تصوغها «قوى الإنتاج».

د- قوى الإنتاج إله جديد جبار!!!

هـ- قوى الإنتاج لا يختارها الإنسان بنفسه، لأنه لا يملك ذلك، إذ هي ثمرة نشاط سابق. لكنه نشاط إنساني، فلم الهرب من ذلك؟

---

(١) في معركة الحضارة، ص١٩١.

والسؤال: إذا كان الإنسان لا يملك وسائل الإنتاج ولا يختارها، فما دور الإنسان في رسم صورة مجتمعه؟ وما حريته في ذلك؟

يجيب «ماركس»[1]: «في الإنتاج الاجتماعي، الذي يزاوله الناس، نراهم يقيمون علاقات محدودة، لا غنى عنها، وهي مستقلة عن إراداتهم، وعلاقات الإنتاج هنا تطابق مرحلة محددة من تطور قواهم المادية في الإنتاج، والمجموع الكلي لهذه العلاقات يؤلف البناء الاقتصادي للمجتمع، وهو الأساس الحقيقي الذي تقوم عليه النظم القانونية والسياسية، والتي تطابقها أشكال محددة من الشعور الاجتماعي. فأسلوب الإنتاج في الحياة المادية، يعين الصفة العامة للعمليات الاجتماعية والسياسية والروحية في الحياة، وليس شعورهم هو الذي يعين وجودهم، بل إن وجودهم هو الذي يعين شعورهم..».

ألا تشبه هذه العلاقات «الجدلية» علاقة البيضة والدجاجة، وأيهما الأصل، وأيهما الفرع؟ إذا كانت «وسائل الإنتاج» هي التي تصوغ نظم المجتمع كافة ومنها «الدين»، فكيف نفسر وجود أكثر من دين في كل بلد، بل داخل الأسرة الواحدة؟

في الهند وحدها يوجد أكثر من ثلاثمائة دين، وإله الخير في الشمال، هو إله الشر في الجنوب -كما تقول إحصائية لهيئة الأمم- ووسائل الإنتاج واحدة؟

---

(١) التفسير الاشتراكي للتاريخ، أنجلز، ص١٢٠.

أليس من الأنسب أن نقول بأن العامل الاقتصادي مهم جدًا في التحضر، دون أن نجعل منه إلهًا، يملي على البشر ما يريد، في جبرية مطلقة لا مثيل لها؟

رابعًا: العوامل الاجتماعية غير الاقتصادية:

إذا جرى التركيز على العامل الاقتصادي -كما فعلت الماركسية- فهناك من يرى أن العوامل الاجتماعية -غير الاقتصادية- هي الأجدر بالعناية في فهم التاريخ ومعرفة خط سير التحضر.. وهؤلاء اختلفوا، فمنهم من جعل النزعة الإنسانية في إثبات الذات والسيطرة هي الأصل، معتبرًا «تنازع البقاء» هو المحرك للتاريخ، والصانع لأحداثه، مرتكزًا إلى آراء «دارون» بهذا الخصوص.

ثم قام فريق ليعكس الأمر، وليركز على توجه البشر للتعاون، خصوصًا وأن المواصلات والاتصالات، تجاوزت البعد المكاني، بينما كان العالم قديمًا يبدو كجزر في محيط كبير، يحيط بها الماء من كل مكان، ويفصلها عن غيرها.

ويجادل بعضهم قائلاً: حين مات نابليون في منفاه، لم تعلم فرنسا بموته إلا بعد ستة أشهر، واليوم لا يقع حدث في مكان حتى نسمع به ونرى صورته في ساعات. ويمكن أن يضاف أن (العولمة) في بعدها، ستكسر الحدود، وتجعل العالم قرية واحدة، يؤثر فيه ويتأثر كل من فيه.

خامساً : عامل العقيدة :

إذا أمكن إقناع إنسان بعقيدة ما، فإنه سينزل عند متطلباتها، دون معارضة قوية، من هنا يعتبر «البعض» عامل العقيدة مهماً وفاعلاً في التحضر، لأن الإنسان يتأثر تأثيراً كبيراً بدينه ومعتقده.

وحين فاخر أهل قريش بخدماتهم للحجاج، رد الله عليهم ذلك بأنه أمر لا يمكن مقارنته بصحة وسلامة الاعتقاد، فقال تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (التوبة: ١٩–٢٠).

فتغير عقيدة الإنسان يعقبه تغير تام في نظرته للحياة وسلوكه كذلك، من هنا لا يجادل أحد في عامل العقيدة، وأمتنا العربية خير دليل، فقد انتقلت من الانقسام إلى الوحدة، ومن حرب «داحس والغبراء» إلى مصارعة أكبر إمبراطوريتين «الفارسية والبيزنطية»، ولو بقيت على إيمانها بالأصنام لعاشت خارج التاريخ، كما تعيش أمم كثيرة.

وفي هذا الميدان وجدت الناقد البريطاني «كولن ولسن» يقول[١]:

---

(١) سقوط الحضارة، ترجمة أنيس زكي، الطبعة الثانية، ص٣٩٥.

إن الإنسان ليس كاملاً بدون دين، فإذا أريد للحياة أن تتقدم خطوات أسمى من «القرد»، ومن الإنسان العادي، وحتى من الفنان، فلن يكون ذلك إلا عن طريق تطوير قوة الفهم، وهذا الشوق لتركيز أعظم من الخيال يتمثل في «الشهية الدينية». إن الدين مقياس البطولة، ورمز حاجة الإنسان في الكفاح من أجل الفهم، وفشل الدين والحروب العالمية أمران متلازمان. ثم يصف «الدين» بأنه العمود الفقري للحضارة، معتبراً الحضارة السليمة، ما كانت تؤمن بالدين.

العقيدة أو الدين هو ما يميز الإنسان عن الحيوان، وكافة الحضارات والإمبراطوريات كان لها دين تعتز به، وتستمد التشريع منه، وتاريخ الإنسان خير دليل: ولم يكن «الإلحاد» معتقداً رسميًا، إلا في العصر الحاضر.

الفيلسوف البريطاني «برناردشو» يذهب بعيداً، فيقول[1]: «كنت أعرف دائمًا أن «الحضارة» تحتاج إلى دين، كما أن حياتها أو موتها يتوقفان على ذلك».

ثم يزيد قائلاً[2]: «إن الحضارة تسقط في اللحظة التي تكون قوة الإنسان أشد وأكبر من قوة الدين».

قيمة العقيدة أنها منظم وضابط لسلوك الإنسان، فإذا «انفلت»

---

(١) سقوط الحضارة، كولن ولسن، ص٣٩٦.

(٢) نفسه.

الإنسان، بحيث لم يعد يضبطه دين ولا عقيدة، فسوف يفعل ما يحلو له، ومن هنا قد يتحول إلى عنصر هدم وفساد.. فالانضباط الديني، يشكل صمام أمان، لا تفرط فيه أمة عاقلة.

لكن من الحق أن نقول: إن العقائد لا تعمل بنفسها، ولو عملت بنفسها، لوجدنا أتباع المعتقد الواحد على حالة واحدة، وحضارة متقاربة، وهذا ما لا نجده، فالإنكليز والألمان والأمريكان، نصارى بروتستانت، وكثير من الأفارقة، وكذلك نصارى الهند وسيرلانكا مثلاً، فهل جعلت العقيدة الواحدة جماهيرها في مستوى واحد؟

ويهود الفلاشا ويهود اليمن وأمريكا، هل جعلت العقيدة الواحدة منهم جميعًا على مستوى حضاري واحد؟

إن العقيدة تعمل من خلال الإنسان وثقافته، وهو قد يجعل منها قوة دافعة محركة، أو باردة لا حياة فيها، وذلك بحسب وعيه وموقعه الحضاري، وثقافته، وحسن إدراكه.

مرة أخرى، العقيدة عامل مهم كبير، متى كان صاحبها فاعلاً واعيًا، وهي ذات أثر ضعيف جداً حين تكون خاملة، أو يكون صاحبها متخلفًا.

لكنها يمكن عدها من أقوى العوامل المؤثرة، إذا أحسن تحريك الإنسان من خلالها.

ويمكن أن أشير إلى ثلاث مراحل متميزة، في حياة أمتنا:

أ- حالها قبل انتشار الإسلام.

ب- حالها في القرون الأولى لانتشار الإسلام، وصدق الالتزام به.

جـ- حالها بعد التكاسل في الالتزام بالإسلام.

سادسًا: عامل المعرفة:

لا يجادل أحد في قيمة العلم والمعرفة في تحضر الأمة، وخروجها من دائرة التخلف والسقوط.

من هنا وجدنا من يعد هذا العامل كمحرك وموجه للحضارة -وقد تقدم- أن عمارة الأرض تقوم أساسًا على العلم والمعرفة، بل على آخر ما توصلت إليه العلوم والمعارف، ولكن «العلم والمعرفة» هما دومًا من نصيب القلة في الشعوب، أما الجمهور فاكتسابه للعلم والمعرفة ومثلها الفلسفة، يقل كثيراً.

وهذه الهند والصين، وعدد شعوبها يصل إلى مليارين، أين نجد نصيب ذلك في شعبيهما؟ لا شك إنه في النخب القليلة جداً، هذه واحدة.

وأما الثانية، فقد وجدنا معرفة «نظرية»، لم تعرف طريقها للحياة، فالمسلمون عرفوا الدورة الدموية، ومثلها كروية الأرض وحركتها، وابن خلدون كشف الكثير من قواعد علم «العمران»، لكن لم يستفد

أحد من ذلك.. ورجال الفلسفة وعلم الكلام كانوا يناقشون: هل تنقسم المادة إلى ما له نهاية، أم إلى ما لا نهاية له؟ ثم وقفوا عند ذلك ولم يتعدوه. قد يقول إنسان: هذا ما تسمح به ثقافة ذلك الزمان، لكنني أجيب أن المسلمين زمن «المأمون» مثلاً درسوا الفلك، كما درسوا محيط الأرض وحركتها، والغلاف الجوي وارتفاعه، ووصلوا إلى نتائج محترمة، لكنهم في ميادين أخرى بقوا يدورون في دائرة الفكر النظري ولم يتجاوزوه.

وحين وصل الناس إلى أمريكا، رفض اليهود ذلك كليًا، بحجة أن المعارف عندهم ترفض وجود قارة جديدة. كما رفضت الكنيسة الكاثوليكية وجود الجراثيم، وغيرها كثير.

إن العلوم والمعارف كانت دائمًا من نصيب نخبة قليلة، لكنها اليوم تتسع دائرتها يومًا بعد يوم، ولن يجادل أحد في قيمة هذا العامل في التحضر، والخروج من دائرة التخلف.

سابعًا: من يصنع التحضر.. الفرد أم المجتمع؟

لا خلاف أن التحضر صناعة إنسانية، والسؤال من يصنع ذلك، الفرد المبدع أم المجتمع؟

قضية قديمة، فهناك من يعتقد أن الفرد المبدع، ومنهم القادة العظام هم الذين يصوغون التحضر، ويصنعون التاريخ، ويتركون بصماتهم

عليه، وهناك من يرى أن المجتمع هو من يصنع ذلك كله، ولولاه لما عرفت البشرية طريقها للتحضر.

الغرب يؤمن بالفرد وجهوده، لذا نراه يترجم لهؤلاء الكبار، كما يوصي بأن التحضر كان أولاً وأخيراً من صنع عبقريتهم، وقوة إبداعهم، ولولاهم لما عرفت البشرية التحضر، ولبقيت حيث هي.

وهذا «أنشتاين» يقول بوضوح[1]: «إن جميع الخيرات المادية والعقلية والأخلاقية -على مر العصور- كان مصدرها الأفراد الخلاقون...».. وربما كان «توماس كاريل» الأكثر حماساً، فهو يكرر دون ملل دور الأبطال، وعبادة البطولة[2].

وهناك من يذهب في الاتجاه المعاكس، فيرى الفاعلية للجماهير، فهي صاحبة الأثر الأعظم في التحضر، وكذلك في التغيير.

فالماركسية مثلاً، تنكر أي دور للفرد، وقد نقل عن «ماركس» أغرب تعريف للفرد إذ يقول[3]: «الفرد مجموع علاقاته الاجتماعية»، ويشرح ذلك فيقول[4]: «ونضيف إلى هذا أن الفرد -تاريخياً- لا يعني نفسه أبداً إلا في إطار حضارة، أي في قلب جماعة».

---

(١) أنشتاين والنظرية النسبية، د.عبد الرحمن مرحبا، الطبعة الأولى، ص٣٠.

(٢) في معركة الحضارة، ص١٩٣.

(٣) ماركسية القرن العشرين، د. جارودي، ص ١٣٠.

(٤) المرجع السابق.

من هذه المنطلقات رأينا الغرب يؤله الفرد، ويعتبره الكل في الكل، بينما تعتبر الماركسية المجتمع هو كل شيء، ولا قيمة للفرد، إلا باعتباره ذرة صغيرة في مجتمع كبير.

وفي الإسلام موازنة بين الفرد والمجتمع، فلا يؤله الفرد، ولا يذوب ويختفي في المجتمع، فالفرد كائن مستقل، إلا أنه يعيش ويموت في المجتمع. وقد تحدث القرآن عن فرعون القائد، وهامان الوزير وجنودهم: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ﴾ (القصص: ٨).

فلم ينسب ما حصل للقيادة وحدها، أو للجنود وحدهم، بل جمع الكل.

وقد درس المؤرخ البريطاني المسألة، فرفض التوجهين معًا فقال[١]: «إن المجتمع هو علاقة بين أفراده، وهذه العلاقة تقوم على اتفاق مجالات أعمالهم، اتفاقًا يجمعها على صعيد مشترك، هو ما نسميه بالمجتمع.

ويمثل لنظريته هذه بالفلاح، يبذر البذر في الحقل، فإذا نبت، تكون لكل بذرة جذور وساق وأوراق، وهي تأخذ نصيبها من الغذاء والهواء (مثل الفرد)، وهذا الحقل زرع من قبل فلاح، بهدف الحصول على حصاد متجانس (وهذا مثل المجتمع). وهو مثال جيد، فكل نبتة في الحقل تمثل فرداً، وكل مافي الحقل يمثل المجتمع.

---

(١) التفسير الإسلامي للتاريخ، د.عماد الدين خليل، ص ٧٩.

قضية أخيرة: البطل لا يعمل لوحده، وكذلك المبدع، وخير مثال لذلك «الجيش»، فهو قيادة وجنود، فالقائد يطبق خططه في جنوده، والجنود لا يستغنون عن قيادتهم، وكسب أي معركة يتطلب قيادة واعية مبدعة، وجنوداً مطيعين، يطبقون بدقة خطط قيادتهم، وهكذا يكون العمل، ما لم يكن فرديًا في التخطيط والتفنيذ.

ثامنًا: الحضارة والكائن العضوي[1]:

هناك من يعتقد بأن الحضارة والمجتمعات الإنسانية كيانات «عضوية»، ومن هذا المنطلق يرون أن التبدل والتغير، نشوءاً واكتمالاً وزوالاً، تحكمه عوامل حتمية، كتلك التي تفعل في الكائنات العضوية. ويضربون مثلاً بالإنسان فهو يولد طفلاً، ثم يصير صبيًا فشابًا فرجلاً، ثم يشيخ ويهرم ويموت، والحضارة كذلك.

ولعل «أوزولد اشبنجلر» أشهر المؤمنين بذلك، لكنه أحيانًا يعدل عن هذا التصور، فيشبه الحضارة بفصول السنة، ويرى ذلك من «الحتميات» التي لا تشذ عنها حضارة، فهو يقول[2]: «إن لكل حضارة ربيعها المتسم بالفاعلية الروحية، يعقب ذلك صيف تنضج فيه، ثم خريف حيث يسودها التحليل العقلي، وشتاء تكون فيه

(١) في معركة الحضارة، ص٦٤، ١٩٣.

(٢) المرجع السابق.

قد استنفذت جميع إمكاناتها الداخلية، فتتحول إلى الاحتمالات المادية، والفتوحات الخارجية، وعندها تكون قد شارفت على الانحلال والانهيار».

الحتمية واضحة جداً، ولكن الحضارة -في أصلها- ليست كذلك، فهي خليط من ماديات وأفكار وعقائد وآداب وفنون، ومنشآت مادية، كل هذا الكم يجتمع في زمان ومكان، مكوناً حضارة معينة.

وهذا لا يشبه الإنسان أو الكائن العضوي المتماسك المترابط، والذي ما أن تؤثر على جزء فيه حتى يتأثر الباقي.

الحضارة قد تقع في أخطاء قاتلة، فتنجح في تجاوزها ومعالجتها، فتجدد حياتها وديمومتها، لكن الإنسان يعجز عن تجديد شبابه.

وبالجملة، فإن تصور الحضارة وكأنها كائن عضوي، أمر يصعب قبوله، وإن كان بعض مكوناتها يتأثر ببعض، فالعقيدة يمكن أن تؤثر تأثيراً كبيراً في الآداب، لكن تأثيرها على الصناعة مثلاً، سيكون أقل.

بهذا الخصوص يمكن أن أذكر أن العرب حين باشروا الترجمة عن معارف اليونان، اختاروا الفلسفة والمنطق، لكنهم لم يترجموا الآداب اليونانية -مع جمالها- لأنها كانت وثنية، تعتقد بتعدد الآلهة، وهذا زهّد المسلمين بها، وجعلهم يتحاشون ترجمتها.

تاسعًا: الاجتياحات العسكرية:

الدول والنظم تسقطها وتقلبها الاجتياحات العسكرية، فهل تسقط الحضارة باجتياح عسكري، مثل حملات التتار، والمغول، والحملات الصليبية؟ ماذا كان سيحدث لو فتح العثمانيون أوروبا كلها؟

ماذا سيكون تاريخ العرب والمنطقة، لو أن ثوار «الردة» أسقطوا النظام الإسلامي، فلم تقم للإسلام دولة؟ للدكتور «أنور عبد الملك» المصري الجنسية وأستاذ جامعي في اليابان، فكرة ملخصها[1]: أن أوروبا صعدت وتقدمت، بينما اضمحلت المراكز الكبرى في المشرق، منذ القرن الخامس عشر، وحصل ذلك بسبب الغزو الأوروبي للشرق، ابتداء من الحروب الصليبية، وانتهاء بالاستعمار الغربي، وزرع إسرائيل كإسفين في قلب البلاد العربية. فأوروبا بغزوها الاستعماري حطمت مراكز القوة في المشرق، واستنزفتها اقتصاديًا، وكذلك اجتماعيًا وسياسيًا وثقافيًا، ولم تترك للمشرق حرية التحرك والنهوض.

لكن المؤرخ «توينبي» يرفض ذلك، ويرى أن العجز عن صد الاعتداءات الخارجية، على كيان حضارة، ليس هو السبب في السقوط، ولكن ثمة انهيار سابق قد حصل في قلب الحضارة نفسها.. واستشهد لذلك بسقوط الإمبراطورية الرومانية.

---

(١) تغيير العالم، سلسلة عالم المعرفة، ص ١٩.

فإذا انتقلنا فكرياً إلى العباسيين، قبل وصول التتار إليهم، سلمنا لنظرية توينبي، فحال العباسيين -دولة وحضارة- كانت في النزع الأخير، وكشف هجوم التتار ذلك فقط. ولما وصل هذا الزحف إلى مصر، صد الهجوم وانتهى الأمر.

والذي يظهر: كما أن الدولة تشيخ، وتستوفي مبررات وجودها، فلا يبقى لديها ما تعطيه، فكذلك الحضارة تشيخ، بعد أن تعطي كل ما لديها، فلا يبقى لديها ما تعطيه، وإذن فلا بد من إفساح الطريق لحضارة قادمة، أكثر قوة وشبابية، تبني على الموجود ، وتزيد في البناء، وتجدد في نظم الحياة. وحين تسير القافلة طويلاً، فكل من يتعب أو يمرض، يتحول -دون جدل- من أول القافلة إلى ذيلها ونهايتها، ومن قيادتها إلى مجرد تابع.. هذا هو القانون.

عاشراً: فساد شبكة العلاقات:

المفكر الإسلامي «مالك بن نبي» يرحمه الله، يطرح فكرة ملخصها: أن الحضارة تبقى وتعيش وتستمر ما دامت شبكة العلاقات الاجتماعية سليمة قوية، فإذا فسدت تدهورت الحضارة وسقطت.. يكرر هذه النظرية في جل كتبه.

ففي «ميلاد مجتمع» كتب قائلاً[1]: «... عندما يرتخي التوتر في خيوط «شبكة العلاقات»، فتصبح عاجزة عن القيام بالنشاط المشترك،

(١) ميلاد مجتمع، مالك بن نبي، ترجمة عبد الصبور شاهين، الطبعة الأولى، ص٣٩.

وبصورة فعالة، فذلك أمارة على أن المجتمع «مريض» وأنه ماضٍ إلى نهايته.

أما إذا تفككت الشبكة نهائيًا، فذلك إيذان بهلاك المجتمع، وحينئذ لا يبقى منه غير ذكرى، مدفونة في كتب التاريخ.

وقد تحين هذه النهاية، والمجتمع متخم بالأشخاص والأفكار والأشياء، كما كان المجتمع الإسلامي في المشرق، في نهاية العصر العباسي، وفي المغرب، في نهاية عصر الموحدين.

وربما كانت هذه الحالة -من التحلل والتمزق في المجتمع الإسلامي- حين أصبح عاجزًا عن أي نشاط مشترك، هي التي أشار إليها قول رسول الله ﷺ[1]: «**يوشك أن تداعى الأمم عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها**، قالوا: أو من قلة نحن يومئذ يارسول الله؟ قال: **لا، بل أنتم كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من قلوب أعدائكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن**، قيل: وما الوهن يارسول الله؟ قال: **حب الدنيا، وكراهية الموت**».

ومالك يرحمه الله يولي هذه القضية عناية كبيرة، شرحًا وتفصيلاً، فيقول[2]: «... فقبل أن يتحلل المجتمع تحللاً كليًا، فإن المرض يحتل جسده الاجتماعي، في هيئة انفصالات في شبكته الاجتماعية،

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ٢/١٠٢، الحديث ١٤٥٠.

(٢) ميلاد مجتمع، ص٤٠.

للأسباب التي ذكرناها، كمًا وكيفًا، وهذه الحالة المرضية قد تستمر قليلاً أو كثيرًا قبل أن تبلغ نهايتها، في صورة انحلال تام، وتلك هي مرحلة التحلل البطيء الذي يسري في الجسد الاجتماعي. بيد أن جميع أسباب هذا التحلل كامنة في شبكة العلاقات...».

وللمؤرخ توينبي فكرة عن انحلال الحضارة، فبعد رفضه الاجتياح العسكري، يرى[1] أن انحلال الحضارة يزامنه فساد كبير، يدب في أرواح الناس، وتغير جذري يطرأ على سلوكهم ومشاعرهم وحياتهم كلها، فيحل مكان الصفات الجيدة، والقوى المبدعة، التي كانوا يتحلون بها، في دور النمو لحضارتهم، يحل مكانها «ثنائية» من النزعات والمواقف العقيمة المتناقضة، وهنا ينكشف ويتعرى الفساد الروحي، كاشفًا عن فوضوية، تعم الأخلاق والعادات، وانحطاط يشمل الآداب والفنون، ثم قد تسعى «الأقلية المسيطرة» إلى فرض فلسفة خاصة، أو دين جديد، مستعملة في ذلك القوة، ولكن دون جدوى ولا فائدة...

تصور جيد، ومن يطبق هذه النظرية على الحضارة الإسلامية في الأندلس، أو العباسية في المشرق، وحتى العثمانية، فسيجد الكثير من الشواهد على صحة هذه النظرية.

---

(١) تفسير التاريخ، للكاتب، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ، ص٣٨.

الحادي عشر : عامل الثقافة والفكر :

ثقافة كل أمة هو رأسمالها الكبير، من هنا لا نجد أمة دون ثقافة وفكر، لكن قد نجدها بدون حضارة، وفي عالمنا المعاصر، نجد ملايين من البشر في آسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية، لهم ثقافتهم وفكرهم، لكنهم يعيشون خارج «فضاء» الحضارة، وإن استعملوا واستهلكوا بعض منتجاتها[1].

١- أعتبر ما تقدم مسلمة، لا تحتاج لجدل كبير، كما أعتبرها القضية الأولى.

٢- الثقافة تصنع الولاء أولاً، وتمنحه طواعية، دون إكراه.

٣- الثقافة تموت أو تذبل، ومثلها الفكر، إذا حصل انفصال بين الوعي والواقع.

٤- هناك قوانين في الحياة، يصعب تجاوزها أو تجاهلها، فالاستبداد في الحكم يفضي عادة إلى تخلف العقل، والتخلف يؤدي إلى تخلف التربية، وتخلف التربية يقود إلى نقد التراث الديني، وهكذا يحصل دوران في حلقة مفرغة، إذ يجري التنقل من المشاكل الثقافية إلى السياسية إلى التاريخية، دون حسم مشكلة من هذه المشاكل.

---

(١) مدخل إلى الثقافة الإسلامية، الأمير د. سعود آل سعود بالاشتراك مع الكاتب، ص١٥.

٥- العالم -قديمه وحديثه- يشهد صراعات ثقافية، وغير ثقافية، فإذا وُجِد تدفق ثقافي أو «قصف إعلامي»، وعلى أكثر من جبهة، وعجزت الثقافة المحلية عن المقاومة والاستيعاب، فهنا احتمالان:

أ- أن تتفكك الثقافة الأضعف.

ب- أن تعدل من آلياتها، وتكيف نفسها.

٦- كل ثقافة وفكر لا بد له من «مرجعية»، فالعقل البشري يصعب عليه العمل دون مرجعية، تمنحه أسسًا كي يستند إليها، وإلا حصل انقسام، وتحولت الأمة إلى أمم.

٧- هل يمكن حل كافة الثقافات، ودمجها في ثقافة واحدة؟

إن التاريخ لم يسجل أن أمة تخلت عن ثقافتها كليًا، واندمجت في ثقافة غيرها، إلا إذا غيرت دينها وكافة معتقداتها، وغيرت لغتها.

٨- مهمة الإنسان المثقف العمل لحل مشاكل أمته، فإن تحول إلى مجرد «سمسار» لثقافة أخرى، فهو يخون بلده وأمته، كما يخون أمانة العلم والثقافة.

إن بعض مثقفي العالم الثالث، اتخذ من العلم والثقافة سلمًا لتحسين وضعه، والحيازة على أكبر قدر من المغانم، متحالفًا مع السلطة، مانحًا ظهره لشعبه وأمته.

٩- سلوك الإنسان يجري منبثقًا عن فكر وثقافة، والأمة تقيم حضارة كثمرة لعقيدة وثقافة، وكلما كانت العقيدة والثقافة حية، كان التحضر أسرع وأنجز، فإذا تحول الفكر إلى مجرد أحلام، وصارت الثقافة مجرد عرف أو صف كلام، فإن العد التنازلي للحضارة يبدأ ويستمر، حتى تسقط الحضارة، أو تتحول إلى جسد لا روح فيه.

١٠- يقول «فرانك أنلو»[1] «راقب أفكارك فإنها تتحول إلى كلمات.. راقب كلماتك فإنها تصبح أفعالاً.. راقب أفعالك فإنها تتحول إلى عادات.. راقب عاداتك فإنها تصبح طباعًا.. راقب طباعك فإنها ظلال مصيرك».

إذا كان هذا يصدق على الفرد، فهو يصدق على الأمة، فالتاريخ لم يسجل نهضة ولا تحضراً جاء صدفة، دون تخطيط وتصميم، وعمل جاد، يشارك فيه الحاكم والمحكوم على حد سواء.

١١- المقصود بالثقافة والفكر: تكوين رؤية شاملة للحياة والوجود والهدف من ذلك، لأن التحضر سلوك جماعي، يتجمع في وحدة ثقافية جامعة، تدفع بالأفراد نحو محصلة مشتركة في العمران المعنوي والمادي، وكل هذا يتطلب نوعًا من التجانس يمكن تسميته بـ «الإجماع الثقافي»، وهو ما توفره في العادة العقيدة الواحدة، أما الإجماع السياسي، فتوفره قيادة

---

(١) القيادة والتغيير، ترجمة بشير الجاري، الطبعة الأولى، ص٢٨.

« كارزمية »، ذات مواصفات عالية، وأهداف سياسية مشتركة.

ويمكن أن أقول: إن الأفكار هي « وقود » التحضر، وبدونها يصعب قيام تحضر مفيد.

١٢- الثقافة والفكر قد تكون دينية، متأتية من مصدر سماوي غيبي، حقيقي أو أسطوري، أو فكر بشري، وهنا سنجد أن « الدين » هو الأكثر دوامًا والأقوى، لذا وجدنا الحضارات الكبرى كلها كانت تقوم في أساسها على « دين »، أو متطورة عنه، فإن لم تكن كذلك فربما سقطت الحضارة، ومثلها الدولة، دون عدوان خارجي -كما سقط الاتحاد السوفياتي- وفي مدة قصيرة نسبيًا.

وأخيراً، الثقافة والفكر مقدمة أو شرط للتحضر، لكن ليس كل ثقافة أو فكر بإمكانها أن تنتج حضارة، إلا أنه لا حضارة بدون ثقافة أو فكر، وأمثل لذلك بأن صحة الصلاة تتوقف على وجود طهارة (وضوء) سابق، ولكن ليس كل من يتوضأ يصلي.. ويحلو لي أن أذكر « طلبتي » بأن نهر الحياة يجري، وعلى جانبه الحضارة، وعلى الجانب الآخر الفكر والثقافة، ويربط بين الضفتين قنطرة هي « القيم ».

الثاني عشر: الدافع الحضاري:

قد تتوفر للإنسان إمكانات كبيرة، لكنه لا يتحرك ولا يستغل هذه الإمكانات، وقد تكون الفرص قليلة، والإمكانات كذلك، ولكن قوة في نفس الإنسان تدفعه للعمل والتشبث، وقل مثل هذا في الشعوب

والأمم، وقد توهم بعضهم فقال: إن التحضر هو من نصيب شعوب بعينها، وثمة شعوب أخرى غير مستعدة لذلك، وإن وافتها الفرص، إلا أن التاريخ يشهد بغير ذلك، فكل من واتته فرصة اهتبلها وأقام حضارة.

وما يصدق على الأفراد، يصدق على الشعوب والأمم، وهذه اليابان، قد تجاوزت شح البلاد، وقلة الخيرات، لأنها كانت مصممة على صعود سلم التحضر، وبأسرع وقت ممكن، بينما نجد بلاداً فيها الكثير الكثير من الخيرات، وهي تراوح مكانها، أو تسير ولكن إلى الخلف، وإلى مؤخرة القافلة.

إن الأفكار حين تحل في النفوس حلولاً إيمانيًا، يكون حلولها دافعًا نفسياً قويًا للتحضر، والتغلب على المصاعب.

إن الأفكار قد تسيطر على نفوس أصحابها، فتدفع بهم إلى العمل الموحد، مع شيء من إنكار الذات، والزهد في المغنم.

وهنا أتذكر ما يكرره «مالك بن نبي» يرحمه الله من أن الحضارة تبدأ روحية نشطة، يعمل أصحابها بجد وإخلاص، ونكران ذات، فتحقق إنجازات كبيرة، ثم يعقب ذلك مرحلة عقلانية، تفلسف المرحلة السابقة، يلي ذلك مرحلة ثالثة، تثور فيها الغرائز، فتتفسخ الحضارة وتسقط[1].

---

(١) ميلاد مجتمع، ص٣٧.

وهذا التوصيف ينطبق انطباقًا عاليًا على الحضارة الإسلامية.

وإذا نظرنا لرواد الحضارة الغربية، وجدناهم في منتهى الجد والتفاني، فإذا نظرنا اليوم إلى مجتمعات «الإنشورنس»[1] نجدها تفتقد كل تلك الصفات الجيدة.

إن همها الأول اليوم أن تكسب، ولو بالتهرب من العمل، للحصول على «الضمان».. وفضائح الفساد تتوالى، من الكبار والصغار معًا، لقد ذهب الرواد، وذهبت معهم التضحيات، ونكران الذات.

وكل حضارة تعرف جيداً الفرق الكبير بين الرواد المؤسسين وذلك النفر البائس المتكاسل، الذي يشهد سقوط الحضارة، وفي الأندلس عبرة لكل معتبر.

دخلناها بـ«١٢,٠٠٠» مقاتل، وحكمناها قرونًا، وأقمنا أروع حضارة، وخسرناها ونحن أكثر من أربعة ملايين مأزوم مهزوم، فلم تضرنا القلة، ولا رفعت عنا الكارثة الكثرة، لقد صرنا «غثاء»، والسيل متى جاء حمل معه ما خف وزنه، وقل نفعه، أما النافع فيبقى في أرضه، ولا يفلح السيل في جرفه.

وأوجه للقارئ الكريم سؤالاً: هل يزعجك ويغضبك تخلف أمتك، وهل لديك مشروع للتحضر والنهوض؟ أم شعارك: نفسي نفسي، ثم ليكن الطوفان؟!

---

(١) الضمانات الاجتماعية.

الثالث عشر: البيئة الطبيعية:

الحضارة تقوم في أمة وأرض.. أما الأمة، فإذا كانت مغلوبة على أمرها متخلفة، وكانت الأمية من نصيب أغلب شعبها، والفقر يضربها بسيوفه، والأمراض تستوطنها بشكل دائم، مرة تموت عطشًا، ومرة تدمر مدنها وقراها الفيضانات، فهذه الأمة لن تفكر بالتحضر، وإن فكرت فعلى حد قول الشاعر:

أتمنى أن أراه حُلمًا والتمني رأسمال المفلس

فلا بد أن يكون للأمة «كفاية» حتى تفكر في التحضر.

ولا بد أن تكون الأرض سخية ولو إلى حد، ولذا فقد جعل توينبي للتحضر شرطين، بعد أن ربط التحضر بوجود «تحدٍ»، لا يكون قويًا فيُقعد الإنسان، ولا سهلاً فلا يثيره، ويضرب لنظريته أمثلة من كلا النوعين[1].

فيمثل للتحدي الصعب بالصحراء وبلاد الإسكيمو، ففي الصحراء حيث الحرارة العالية والمياه الشحيحة، يصعب إقامة حضارة، أو نجاح مشروع حضاري، على نطاق واسع، ومثل ذلك بلاد (الأسكيمو) حيث يصارع الإنسان البرد من أجل أن لا يفتك به، لذا فلن يفكر بمشروع حضاري وهو يصارع من أجل البقاء حيًا.

(١) في فلسفة الحضارة، ص ٢١٠.

أما التحدي السهل، فيمثل له بالمناطق الاستوائية، حيث الجو المعتدل، والشمس المشرقة، والأمطار الغزيرة، فلا يخاف الإنسان الموت جوعًا أو عطشًا أو بردًا.

إن الإنسان صانع الحضارة، لكنه يحتاج للعوامل التي تعينه وتساعده، من البشر والطبيعة. ونحن نرى اليوم أممًا تجاهد للتغلب على العوائق، فهناك تحلية مياه البحر، واستخراج المياه الجوفية، والزراعة في بيوت محمية، وتحسين المنتوجات الحيوانية والنباتية، وإقامة السدود لجمع المياه، وتسميد الأراضي الزراعية لمضاعفة المنتوج، هذا في الحقل الزراعي، وفي الحقل الصناعي حصل تقدم أكبر، مما جعل التحكم في البيئة أفضل من قبل، وإن كان لكل شيء ثمن.

وأختم ما تقدم بقول «ديورانت»[1]: إن العوامل الجغرافية، على الرغم من أنها يستحيل أن تخلق المدنية خلقًا، إلا أنها تستطيع أن تبتسم في وجهها، وتهيء سبل ازدهارها.

إن الأرض لا تضيق بأهلها، ولكن النفوس الشحيحة (الكزة)، هي التي تضيق. وأحب أن أكرر مع الشاعر:

كلما أنبت الزمان قناة   ركب المرء في القناة سنانا

الأغنياء ونسبتهم في العالم عشرة بالمائة، يسيطرون من خيرات

---

(١) قصة الحضارة، ١/٤.

العالم على تسعين بالمائة، ولا يعفون عن سرقة ونهب الفقراء، فيزداد الأغنياء غنى، ويزداد الفقراء فقراً.

الفقير بحاجة إلى محراث وحاصدة وجرار، ودواء، وطعام، وماء نقي، لكن الغني يفضل أن يبيعه دبابة وصواريخ، أو أدوات زينة وتجميل، أو سيارات فخمة، أو مشروبات غازية، فكيف نحل هذه المعادلة؟!

حركة التحضر ومساراتها

التحضر مستمر، والتاريخ يتحرك، ولكن في أي اتجاه؟

هناك خمس مدارس تتوزع الموضوع:

أ- التقدم الصاعد.

ب- التأخر والنكوص.

جـ- دورات الحضارة

د- عدم التزام خط واحد.

هـ- الانقطاع التاريخي.

وسأحاول بحث كل اتجاه، بالحدود التي تسمح بها طبيعة البحث.

أولاً: التقدم الصاعد:

لعل أقدم من آمن بذلك بعض فلاسفة اليونان، ثم جاء بعدهم كل من بيكون وديكارت، فتبنوها.

وقد راجت الفكرة في أواخر القرن (١٧)، حيث قام جدل كبير بين أنصار القديم والحديث، فراح أنصار « الحديث » دفاعًا عن موقفهم يرددون: أن أنصار القديم يقعون في وهم حين يقولون بأن من سبقهم كانوا أرجح عقلاً، بينما الإنسان كلما كبر ازداد حكمة ونضجًا وأصالة، وكذلك الإنسانية، فهي تسير دومًا نحو « التقدم »، وإذا كان للقديم فضل السبق، فإن اللاحق له فضل الكمال.

ابتدأت الفكرة « بالأدب »، إلا أنها ما لبثت أن تحولت إلى السياسة، وعلم الاجتماع، والفنون والفلسفة والتاريخ.

هذا التوجه هو الذي مهد وروج لفكرة « التطور »، والتي آمن بها « هيغل »، وعنه أخذها « ماركس وأنجلز ».

وقد منحت التطورات العلمية دفعة قوية لهذا التوجه، فقد استقر في النفوس أن « العلم » سيحل جميع المشاكل، حتى لا يبقى في الحياة سر، ونادى البعض أن كل مشكلة لها في العلم حل، وإلا فهي مشكلة زائفة وميتافيزيقية.

وقد واجهت الفكرة الكثير من النقد والتجريح، بعضه يتعلق بالمنهج، والآخر يتعلق بالقيم، التي صدر عنها المؤمنون بها.

كذلك يلاحظ أنهم نقدوا مثلاً « العصور الوسطى » وفق معايير حديثة معاصرة، ابتدأوا حملتهم أولاً على رجال الكنيسة، لكن سرعان ما تجاوزوا ذلك للهجوم على الدين نفسه، نافين أن يكون له

دور في الحضارة، تكوينًا وتقدمًا.

المهم أن البداية كانت من «الأدب»، لتنتقل منه إلى سائر العلوم والمعارف، كما بدأت بنقد رجال الكنيسة، لتنتهي بالدين ذاته.

والإنسان يتمنى من كل قلبه أن تكون حركة التحضر تسير قدمًا، ولكن الحضارة ليست جسمًا عضويًا، إما أن يتقدم كله، أو يتأخر كله، فهي خليط من معارف وعقائد وتشريعات وآداب وفنون، ومنشآت مادية، يجمعها وعاء زماني مكاني، لذا ليس شرطًا أن تسير بخط واحد، فقد تتقدم الآداب مثلاً دون التشريع، وقد تتقدم بعض العلوم دون بعض، فالقول بأن حركة الحضارة تسير وفق خط واحد، وباتجاه واحد، يصعب قبوله، لأن الشواهد لا تساعد على ذلك. والحياة والكون ما يزالان مملوءان بالأسرار، والعلم لم يكشف الكثير من أسرارها، والحماس للعلم قد خف، ولم يكن كالقرون التي مضت، وقد صار العلماء أكثر تواضعًا، وأقل ادعاء.

ثانيًا: حركة النكوص:

المؤمنون بهذا التوجه يشعرون بغلبة الشرور، وتدهور القيم الأخلاقية، وكذلك الجمالية، وفوق ذلك وبعده، الحروب المدمرة، وضياع السلام والاستقرار، وشيوع الفساد والإرهاب، والتكالب على المادة، ويساهم في هذا الاتجاه علماء الدين، ويشاركهم بعض العلماء، الذين يتذمرون من عجز الإنسانية عن التقدم الحقيقي، فهذا «جيته»

الألماني يقول[1]: «لقد صار الإنسان أكثر ذكاء ووعيًا، ولكنه لم يصبح أكثر سعادة، أو أنبل خلقًا». وهي حقيقة موجعة مؤلمة.

أما «توينبي» فقد تصور أن العالم عقد صفقة مقايضة غريبة، فقال[2]: «لقد أغرت فنون الصناعة ضحايا، وجعلتهم يسلمون قياد أنفسهم، وذلك ببيعها المصابيح الجديدة لهم، مقابل المصابيح القديمة، لقد أغوتهم فباعوها أرواحهم، وأخذوا بدلاً عنها «السينما والراديو»، وكانت نتيجة هذا الدمار الحضاري، الذي سببته تلك الصفقة، اقفراراً روحيًا، وصفه أفلاطون بأنه (مجتمع خنازير)». هذه الصفقة لم يسلم منها بلد، كما يبدو.

أما «أدوارد كربنتر» فيعتبر «المدنية» مرض جميع الأجناس[3]. وقد كان الفيلسوف «برنارد شو» يسخر من المدنية وتقدمها، بل يعلن أن البشرية ستعود إلى وثنية وبدائية يومًا ما، ولا يتوقع أن تحقق الإنسانية تقدمًا أكثر مما عرفت[4].

إن فكرة «التقدم» لدى أصحاب «النكوص»، تبدو كوهم كاذب، وهم يستعملون مصطلحات «مبهمة» مثل سيطرة العقل، وحرية الشعوب، والسيطرة على الطبيعة، والسلام الدائم، وهم يتصورون أن

(١) في معركة الحضارة، ص١٥٤.

(٢) سقوط الحضارة، ص ١٦٤.

(٣) في فلسفة الحضارة، ص١٨٠.

(٤) المرجع السابق.

البشرية تسير نحو غاية معلومة، ولم يكن ذلك عن طريق البرهان العلمي، ولكن عن طريق الأماني، ومن هنا راحوا يخترعون المصطلحات، وكأنها شيء حقيقي موجود، ولها كيان في الخارج(١).

ولعل خير من يعبر عن هذا الاتجاه «ألبرت شفيتز»، فهو يقول(٢): الخاصية المروعة لحضارتنا أن تقدمها المادي أكبر بكثير جداً من تقدمها الروحي، وقد اختل توازنها، فجعلت اكتشافات قوى الطبيعة تحت تصرفنا، محدثة ثورة في العلاقات بين الأفراد والجماعات، وبين الدول.. زادت معارفنا، فازدادت قوتنا، وصارت أحوالنا المعيشية أفضل، ولكن ممارستنا للتقدم والقوة جعلتنا نتصور الحضارة تصوراً ناقصاً معيباً، فنحن نغالي في تقدير الإنجازات المادية، ولا نقدر العنصر الروحي حق قدره.

إن الحضارة التي تنمو مادياً، ولا يواكب ذلك نمو متكافئ روحياً، تكون كسفينة اختلت قيادتها، فزادت سرعتها، وأوشكت على كارثة. إن جوهر الحضارة لا يتحدد بإنجازاتها المادية فقط، بل باحتفاظ الأفراد بالمثل العليا لكمال الإنسان، وتحسين أحواله كلها، فإذا عمل الأفراد كقوى روحية مؤثرة على ذواتها، عندئذٍ يمكن حل المشاكل، والوصول إلى تقدم جدير بالتقدير من كل ناحية.

إن مصير الحضارة يتوقف على كون «الفكر» يسيطر على الأحداث

---

(١) في فلسفة الحضارة، ص١٨١.

(٢) دولة الفكرة، د. فتحي عثمان، الدار الكويتية، ص٨٩.

أو لا يسيطر.. والقدرة في أسباب الحياة بين الأفراد والشعوب، وهي تساير موكب التقدم في الماديات، تقتضي مطالب أسمى عند الجماعة المتحضرة، في اتجاه حضارة رفيعة. إن زيادة سرعة السفينة تتطلب -فيما تتطلب- زيادة المتانة في جهاز القيادة والتوجيه.

إن الإنجازات المادية للحضارة تجعل الناس غير أحرار، ففلاح الأمس صار مجرد أجير في مصنع، والعمال اليدويون والتجار المستقلون صاروا مجرد مستخدمين، وهكذا يفقدون الحرية، التي كان يتمتع بها الإنسان، الذي يملك منزله، ويتصل مباشرة بالأرض.

إن التقدم الخارجي للحضارة، يوصل إلى هذه النتيجة: إن الأفراد رغم حصولهم على مزايا، يضارون من نواحي مادية وروحية في طاقاتهم، فالإنجازات المادية لا تصبح حضارة، إلا بمقدار ما تستطيع عقلية الشعوب المتمدنة أن توجهها وجهة «كمال الفرد والجماعة».

لقد تزعزع تركيب العالم والحياة عندنا، فلم يعد الرجل العصري يشعر بدافع قوي للتفكير في المثل العليا للتقدم، بل قد كيّف نفسه، إلى حد بعيد، مع النزعة الواقعية.

إنه أكثر استسلامًا مما يعترف، لكنه يتشاءم، ولم يعد يؤمن بأن التقدم الروحي والأخلاقي هو العنصر الجوهري في الحضارة، وهذا سببه نظرتنا الكونية منذ القرن التاسع عشر[١].

---

(١) هذا موجز بتصرف قليل، بهدف الاختصار من المرجع السابق.

وبودي أن أضيف ملاحظة ذكية للناقد البريطاني «كولن ولسون»[1] «فهو يرى أن حضارة اليوم فيها «صخب شديد»، فلا تدع مجالاً للدعة والتأمل، وهكذا يبدأ الإنسان بفقدان السكينة الداخلية، كما يفقد الهدف الجيد، الذي يجعله أكثر وأكبر من مجرد «خنزير» يحمل كفاءة» . .

وأحسب أن وجود الصخب وفقدان السكينة مما لا جدال فيه.

وأختم بقول الشرقاوي[2]: «إن الباحث المنصف لا يملك القول بتحديد مسار معين للحضارات، تقدمًا صاعدًا، أو نكوصًا هابطًا، إذ أن كل حضارة يعرض لها هذا وذاك، فلا يدل ماضيها على مستقبلها، ولا تبشر سيطرتها العقلية على الطبيعة، ضرورة بتقدمها الشامل، في كل حال».

ثالثاً: دورات التحضر:

هناك من يعتقد أن الحضارة لها دورة، بعضهم مثل ابن خلدون يتصورها مغلقة، وغيره يراها مفتوحة.. البعض يتصورها كطالع الجبل، بينما يرى آخرون أنها أشبه ما تكون بعجلة تدور حول محور ثابت، بينما يتصورها آخرون أشبه ما تكون بعملية نسج القماش والسجاد.. ولأن كل صورة لها من يؤمن بها، لذا سأستعرض بعض

---

(١) سقوط الحضارة، ترجمة أنيس زكي، الطبعة الثانية.

(٢) في فلسفة الحضارة، ص١٨٤.

هذه الرموز، والطريقة التي يرون بها حركة التحضر. أبدأ بابن خلدون، وفيكو، واشبنجلر، وتوينبي، وأختم بمالك بن نبي.

١- عبد الرحمن بن خلدون:

سأقتصر هنا على رأيه في دورة الحضارة أو التحضر فقط، ثم أعود لدراسته فيما بعد.

يرى ابن خلدون أن دورة الحضارة تبتدئ بالبداوة، يعقب ذلك التحضر ثم الترف فالتدهور[1].. وهو يرى أن البداوة تتسم بالخشونة، وتظهر في أهلها الشجاعة والنجدة والبسالة، كما يظهر فيهم الترابط والعصبية، بعد ذلك يأتي دور التحضر والترقي، حتى يسقط الناس في الترف الذي يقود إلى التدهور والسقوط.

ثم نقل الفكرة إلى رئاسة الدولة، فجعلها في أربعة أجيال: باني الدولة، ثم ابنه المقلد لأبيه، ثم الثالث الذي يكون مقتفيًا ومقلداً لمن تقدمه، ثم الرابع المقصر عنهم والمضيع لصفاتهم، ثم تسقط الدولة.

كما حاول أن يرسم ذلك في القبائل والإمارات، وكافة أهل العصبيات[2]. ويعتقد ابن خلدون بأن الحضارة هي غاية العمران، وهي من جهة ثانية نهايته، وكل حضارة تصل إلى هذ الحلقة، فإنها لا تلبث أن تبدأ دورة جديدة، لتنتهي بالبداوة، وهكذا.

---

(١) في معركة الحضارة، ص١٥٨.

(٢) من المقدمة، ص ١٣٧.

٢- فيكو[1]:

عالم اجتماع وتاريخ عاش في إيطاليا في أواخر القرن السابع عشر.. يعتقد «فيكو» أن المجتمعات البشرية تمر عادة بمراحل معينة من (النمو والتطور والفناء)، فالناس ينتقلون عادة من البربرية إلى المدنية بفضل «العناية الإلهية»، التي تشمل الوجود برعايتها.. والحضارة تقوم على نوع من التناسق بين مكوناتها، فإذا ساد اتجاه فني معين مثلاً، أو مذهب ديني في مجتمع، فإنه تسود معه أنماط معينة من النظم السياسية والاقتصادية والتشريعية وغيرها.

كما يرى أن دورات التحضر يفضي بعضها إلى بعض، ثم تعود، وإن كان التاريخ لا يعيد نفسه، لأنه ليس للتاريخ «عجلة» تدور حول نفسها، لذا لا يتمكن مفسر التاريخ من التنبؤ بالمستقبل. بل الحركة تكون بشكل «لولبي»، صاعدة متجددة، تشبه حركة «صاعد الجبل»، الذي يدور حوله، ثم يرتفع، حتى يصل إلى قمة الجبل، فكل دورة له تعلو سابقتها، كما تزداد اتساعًا وشمولاً.

وهكذا تمر المجتمعات بمراحل من التطور والنمو، لتنتهي بالبربرية، ثم لتبدأ من جديد دورة جديدة، أعلى من سابقتها، لتنتهي بالانحلال، وهكذا تتشابك حلقات الحركة، في صعود دائم.

وواضح أن «فيكو» يؤمن بالتقدم والصعود، لكنه لا يتصوره

(١) في معركة الحضارة، ص١٨٧، والحضارة الإسلامية، د.الواعي، ص١٤٤.

مستقيمًا -كما يراه غيره- وفيكو يرى أن حركة التاريخ مرت بثلاث مراحل متميزة: أ- مرحلة اللاهوت.

ب- مرحلة البطولة.

جـ- مرحلة الإنسانية.

والمرحلة التالية تكون أعلى من سابقتها، وهو يفيض في شرح هذه المراحل.. وواضح أن هذه المراحل ليست متعاقبة، بل قد تكون متداخلة، وقائمة في المجتمع الواحد.

ويشير أكثر من ناقد إلى تأثر «فيكو» بالتوراة إلى حد كبير.

٣- أزولد اشبنجلر:

صاحب كتاب «تدهور الحضارة»، وهو من المؤمنين بدورة الحضارة، مرة يشبهها بالإنسان في نموه حتى وفاته، ومرة يشبهها بالفصول الأربعة، ويذهب إلى حتمية «السقوط»، ومن هنا جاء الهجوم عليه، خصوصًا وهو يتنبأ بسقوط الحضارة الغربية.

يقول مترجم كتابه الأستاذ أحمد الشيباني[1]:«يرى اشبنجلر أن الحضارة تولد في اللحظة التي تستيقظ فيها روح كبيرة، وتنفصل هذه الروح الأولية للطفولة الإنسانية الأبدية، كما تنفصل الصورة عما ليس بصورة...

---

(١) تدهور الحضارة، ترجمة الشيباني،١/١٢، مكتبة دار الحياة.

ويرى أيضًا أن الحضارة تولد وتنمو في تربة بيئة يمكن تحديدها تحديداً دقيقًا، وأن الحضارة، ككل كائن، لها «طفولتها وشبابها ونضوجها وشيخوختها»، وأنها تموت عندما تحقق روحها جميع إمكاناتها الباطنية، على هيئة شعوب ولغات ومذاهب دينية، وفنون وعلوم ودول، وهي عندما تحقق ذلك، وتستنزف إمكانات روحها في تجسيد هذه الإمكانات، فإنها تتخشب، وتتحول إلى «مدنية»، وأخيراً تتجاوز المدنية إلى الانحلال والفناء».

إنه يشبه الحضارة بالإنسان، تنتقل من طور لآخر حتى تشيخ، ثم يعود ليشبهها بفصول العام، فيقول[1]: «للحضارة ربيعها المتسم بالفاعلية الروحية، وصيفها الذي تنضج فيها، وخريفها الذي يسوده التحليل العقلي، وشتاؤها الذي تكون فيه قد استنفذت جميع إمكاناتها الداخلية، فتنصرف إلى الاهتمامات المادية، وإلى الفتوح الخارجية، ويكون هذا مقدمة لانحلالها وانهيارها».

وقد هوجم (اشبنجلر) على تصوراته هذه، وخصوصًا تشبيه الحضارة بالإنسان، لأن الحضارة قد تفلح في علاج ما يعترضها من مشاكل، فتطيل في عمرها، ولن يستطيع الإنسان ذلك.

وهو يقسم الحضارة إلى ثلاث حقب:

---

(١) في معركة الحضارة، ص٦٤.

١– الدور السابق للحضارة.

٢– دور الحضارة الفعالة، ويقسمه إلى: عهد متقدم، وآخر متأخر.

٣– دور الحضارة المستنفذة، المؤدي إلى الانحلال.

وهذا التقسيم النظري سهل ميسور، لكن يصعب عند التطبيق.. فمتى تنتهي المرحلة الأولى مثلاً، ومتى تبدأ الثانية أو الثالثة؟

إن التداخل بين المراحل يمنع من ذلك.. وهذا النقد وُجِّه (لتوينبي) أيضًا، حين راح يقسم المراحل كذلك.. أشياء كثيرة تبدو جميلة ورائعة نظريًا، وعند التطبيق تبدو ليس كذلك.

مما هوجم فيه أو عليه (اشبنجلر) قوله: إن حضارة الغرب الحالية قد وصلت إلى دور الانحلال، وهي صائرة إليه «حتمًا»، وعلى أصحابها أن يجابهوا هذا المصير، بوعي وشجاعة[١].

ويرى (اشبنجلر) أن كل حضارة ستمر بنفس الأدوار التي مرت بها غيرها، كما تظهر إبداعاتها في ذات الأوقات أيضًا.

إنه جزم يصعب قبوله، فبعض الحضارات استنفذت قرونًا حتى نضجت وأبدعت، بينما لم يحتج غيرها لكل ذلك.

كما أن القول بتجدد الدورات الحضارية، لا يستلزم ذات الوقت للإبداع والنضج، بل لا دليل على ذلك، ومن الغرائب أن (اشبنجلر)

---

(١) في معركة الحضارة، ص٦٥.

لا يرى جدوى من دراسة مصادر الحضارات، والعوامل المؤثرة فيها، وفي تطورها، وحجته في ذلك أنه لا يمكن تفسير حضارة خارج نطاقها، والمتشابه من الحضارات لا يتجاوز «الصور والأوضاع والمظهر الخارجي فقط»[1].

لأن لكل حضارة شخصيتها المستقلة، كما لها لغتها الخاصة.

والسؤال: هل يمنع ذلك من دراسة العوامل المؤثرة، وتطور الحضارة؟

ومن آرائه أن الحضارات لا تنتهي، تقدم منها الكثير، وبقي مثل ذلك، وما الحضارة الغربية إلا واحدة، ولكن أهلها قد استغرقهم حب الذات فتوهموا أنها مركز لكل الحضارات[2].. ولو قالوا وارثة حضارات لما اعترض أحد.

ولعل من المفيد أن أنقل تصور (اشبنجلر) للحضارة وتعريفه لها إذ يقول[3]: «إنها انبعاث روحي لجماعة من الناس، يربطهم مفهوم متقارب للوجود، فينعكس ذلك على ألوان النشاط المختلف لديهم: في الفن والدين والفلسفة والسياسة والاقتصاد والحرب».

٤- أرنولد توينبي:

توينبي يعتقد بدورة الحضارة، لكنه يشبهها بدوران العجلة حول محور ثابت، فتتكرر العملية، وبفضل ذلك تسير العجلة

(١) في معركة الحضارة، ص١٩٥.

(٢) المرجع السابق،ص١٩٧.

(٣) المرجع السابق، ص١٩٨.

-كما هو الحال في السيارة- وهو يرى أن للحضارة حركة شاملة، ناتجة عن حركة دورية جزئية. ويضرب أمثلة لهذا التناسق بين حركتين: حركة تقدمية كبرى، محمولة على أجنحة حركة صغرى متكررة، وهكذا تتكرر فصول السنة.

لكنه يختار مثالاً آخر، إذ يشبه حركة الحضارة بحركة «مكوك» الناسج، فهو مستمر في الحركة ذهاباً وعودة، وعلى وتيرة واحدة، وبفضل ذلك يتم النسيج المطلوب، وهكذا تنسج الأيام نسيج التاريخ، من خلال تكرر الأحداث، تكراراً مستمراً.

وبذا يجمع توينبي بين حركتين: واحدة متجهة إلى غاية -أمامية أو خلفية- وحركة أخرى تدور حول نفسها، وتعود إلى ما كانت عليه «المكوك»[1].. إن توينبي مات في السبعينيات، ولذا فقد تحامى كل نقد موجه لأسلافه، مثل اشبنجلر، كما ابتلي بمعاداة الصهيونية، وربما أثر كل ذلك على صياغة أفكاره.

٥- مالك بن نبي:

يعتقد مالك بن نبي أن حركة الحضارة أو التحضر، تكون بشكل دائري -مثل ابن خلدون واشبنجلر- تبتدئ روحية ثم عقلية، ثم تهيج الغرائز فتسقط الحضارة.

---

(١) في معركة الحضارة، ص١٦١.

يقول مالك يرحمه الله[1]: « ...والمراحل الثلاث في هذه الدورة، تعبر عن الأدوار الثلاثة، التي يمر بها المجتمع: الحالة الكاملة، حيث تكون جميع الخصائص والملكات تحت سيطرة « الروح »، ومتصلة بالاعتبارات ذات الطابع الميتافيزيقي.

والمرحلة التالية هي التي تكون فيها جميع الخصائص والملكات تحت سيطرة « العقل » بخاصة، ومتجهة نحو المشكلات المادية.

أما المرحلة الثالثة، فتصور نهاية تحللها تحت سلطان « الغرائز » المتحررة من وصاية الروح والعقل، وفيها يصبح النشاط المشترك مستحيلاً، ضاربًا بأطنابه في أغوار الفوضى والاضطراب، وهو مانجده في حالة المجتمع الإسلامي بالأندلس، في العصر المشؤوم، المسمى بعصر ملوك الطوائف ».

هذا الطرح يشاركه فيه بعض مفكري الغرب أيضًا، لكنه يبدو منتزعًا من الحضارة الإسلامية في الأندلس والمشرق، كما أن التداخل في المراحل قائم.

رابعًا: عدم التزام حركة التحضر خطًا معينًا:

هؤلاء لا يرون في حركة التحضر سنة ظاهرة، ولا شكلاً محددًا، بل أحداثًا تتتابع وتتشابه مرة، وتختلف أخرى، لكنها تبقى فريدة طارئة،

---

(١) ميلاد مجتمع، ص ٣٧، وشروط النهضة، ص٦٦.

لا يجمعها قانون، ولا تتكرر، فالتاريخ لا يعيد نفسه، ولكل واقعة أو حدث خصوصيته. ولذا فإن محاولة استنباط قانون يحكم الحركة، من الصعوبة بمكان. والتحضر وحركة التاريخ من صناعة الإنسان، وهو صاحب فكر وإرادة، ومن الصعب أن تحكمه حتمية جامدة[1].

وقد وجدت الدكتور قسطنطين زريق يعترف بصعوبة الجزم في المسألة، لقلة العلم[2]: «ليس بين أيدينا العلم المطلوب في هذا الميدان، الذي يأخذ على عاتقه تنسيق المعلومات المتصلة بالحضارة، والمستمدة من التاريخ والعلوم الاجتماعية والفلسفية، وربطها واستخراج مبادئها وقواعدها، بحيث يتيح لنا أن نتخذ في هذا الموضوع، الواسع المتشابك، مواقف يقينية ثابتة». تصور جيد للمسألة وأبعادها، يخلو من الادعاء، ويتسم بالتواضع والموضوعية.

خامساً: الانقطاع التاريخي:

يتحدث البعض عن الانقطاع التاريخي، ويعني ما يصيب حركة التحضر من انقطاع، وإلا فإن التاريخ لا ينقطع، حتى تقوم الساعة.. إن نهر الحياة جار، وسيبقى حتى ينتهي هذا الكون.

وقد وجدت د. رفيق حبيب في كتابه القيم «تفكيك الديموقراطية» يضع عنوانًا عامًا: «الحداثة.. موت أمة»، ثم يضع

(١) في معركة الحضارة، ص١٦٢.

(٢) المرجع السابق، ص١٦٣.

عنوانًا أصغر: «التاريخ لا ينقطع»، يقول فيه[1]:

«إن مقولة الانقطاع التاريخي، ليست مقولة مادية، لأن التاريخ لا ينقطع، فهو فعل مستمر دائم، يتحرك إلى الأمام ولكننا نصفه بصفات رمزية، فنقول: إنه انقطع، أو إنه يعود إلى الوراء، أو إنه ساكن لا يتحرك ولا يتقدم، وكلها أوصاف لحالة الأمة، وموقفها الحضاري، وليست وصفًا للتاريخ، باعتباره «التسجيل الزمني لحياة الأمم».

فالانقطاع إذن ليس تاريخيًا في جوهره بل هو حضاري، فحركة الحضارة هي التي أصابها الانقطاع، ويعني ذلك أن المنظومة الحاكمة للحضارة، وجملة المبادئ والقيم الأساسية فيها، قد أصابها الانقطاع فلم تعد سائدة ومؤثرة ومسيطرة، بل تراجعت، وظهر بدلاً منها منظومة أخرى قدر لها أن تحوز قدرًا هامًا من السيادة والسيطرة على مصير الأمة.

ولكن هذا التصور يحتاج لأبعاد أخرى تجعله واقعيًا وتاريخيًا، فليس صحيحًا أن الشعوب تعيش في ظل قيم يمكن أن نضعها أو نخرجها أو نغيرها، فالوقائع العلمية تؤكد أن تركيب الأمم أكثر تعقيدًا من أي فعل مقصود.

ولذلك فإن ما يحدث في أي أمة يتبع قوانين وسننًا، تحدد الممكن

---

(١) تفكيك الديمقراطية، ص٨٨.

والمستحيل، فإذا كانت قيمنا الحضرية قد انقطعت وحلت محلها قيم أخرى، فكيف حدث هذا، وما معناه الحقيقي، في التركيبة الاجتماعية؟!

إن لكل أمة ملامحها الخاصة، التي تشكلت عبر قرون طويلة، وهي بوصفها المميز للأمة، تمثل إفراز الأمة المحقق لتقدمها، وكذلك المحدث لحالة الرضا الداخلي، والقناعة الجمعية. وعبر تاريخ أي أمة يمكن أن نلحظ ما يميزها، وكوامنها الداخلية، وميولها الفطرية، واختياراتها الجمعية، وتفضيلاتها الطبيعية، وكلها تمثل في النهاية الأمة نفسها.

أي أن ملامحها وخصائصها هي ما شاع وساد تلقائيًا، محققًا الاختيار الحر الملائم، الذي تميل له الأمة، فيحقق سعادتها.

ملامح الأمة -بهذا المعنى- هي تلك القسمات البارزة والواضحة والشائعة، فليس صحيحًا أن الأمة -أي أمة- هي سديم متجانس، إلى حد التطابق، ليس فقط بين أفرادها، بل أيضًا بين جماعاتها. وملامح أي أمة، هناك السائد، وهو ما شاع واكتسب عمقًا واستمرارًا، وهناك غير الشائع والنادر، وغير المتكرر، والذي يتميز بأنه غير أصيل، وهناك ملامح هامشية ليس لها نفس الوجود، سواء في قوتها أو انتشارها، وهذه لا تعبر عن الميل الفطري التلقائي للأمة، بل هي بمثابة الاستثناء الذي يثبت القاعدة، وهي كل ما ظهر دون أن يحوز إقبالاً أو إجماعًا

من الأمة، وهذه هي السمات التي لم تحقق نجاحًا في الأمة، ولم تحقق الأمة بها أي ازدهار أو تقدم...»

بعد ذلك يتحدث د. حبيب عن السمات السائدة والمتنحية.. فالسائدة هي الشائعة حتمًا، أما المتنحية فهي غير الشائعة، فما شاع في الأمة يصبح سائدًا، ويتنحى ما لم يشع.

«والأمة في ازدهارها تشحذ قيمها ومبادئها وعوامل نهضتها وتقدمها وازدهارها حضاريًا، أي أنها حققت ما تريده وتفضله وتميل إليه، لذلك فالازدهار يرتبط بالقيم السائدة والأفكار الغالبة، والمقدسات محل اعتراف الجميع، بذلك يرتبط الازدهار -في فهمنا- بالملامح السائدة للأمة، محققًا بذلك التواصل مع الماضي بثوابته وملامحه، ومحققًا أيضًا للتطور التاريخي، المعبر عن كيان الأمة وصعودها، وبهذا المعنى يرتبط التقدم بحالة تحقق قيم الأمة في الواقع المعاش، فتصبح هذه القيم هي نظام الحياة بجوانبه السياسية والأهلية والقانونية والأخلاقية...»[1].

لكن الأمة قد تمر بحالة تدهور، فهنا تفقد القيم قدرتها الوظيفية، وتصاب بعطب وظيفي، فيختل تماسك الأمة، وتضعف قدرتها على الصمود أو تنهار، تضعف عن مواجهة التحديات داخليًا وخارجيًا،

---

(١) تفكيك الديموقراطية، ص٩٠.

وعندها يرتبط وجود الأمة باستمرار السيطرة السياسية والعسكرية.

وبتدهور حالة الأمة تصير غير راضية عن نفسها ولا عن ثقافتها أو لغتها أو آدابها، وهنا يحصل صدام بين الأمة وقيمها، وكأن الأمة أصبحت عدواً لنفسها، أما القيم الأصلية فتضعف، وأما القيم المتنحية فيصبح ظهورها أقوى، وهنا تزداد الأمة ضعفًا، ويباشر بتوظيف القيم الأصلية توظيفًا سلبيًا، وربما يجري ارتكاب الأخطاء والمفاسد في حق الأمة، باسم الأمة، وقد يفرض عليها حكمًا ظالمًا يفسد حياتها ويسممها.

والانقطاع التاريخي يكون هنا بمعنى دورة طبيعية، حيث يفسد النظام الإيجابي للأمة، ويتم تنحيته لمصلحة نظام هامشي تفرض سلطته اغتصابًا، وهنا يكون الانقطاع عبارة عن انقطاع سيادة قيم الأمة عن الأمة ومصيرها، وتقوم عليه أقلية تنتمي لهذا النمط الهامشي، وتفرض سيطرتها على الأغلبية، وعلى نمط الحياة وقيمها، وشيئًا فشيئًا تفقد الشرعية، وتسوء الحالة يومًا بعد يوم.

حاولت جهد الإمكان التلخيص مع المحافظة على المعلومة، وأنصح بقراءة ودراسة «تفكيك الديموقراطية».

مع أشهر المفسرين لحركة التحضر

كافة الأفكار والمدارس والمذاهب قامت في أفراد، نادوا بها، وعنهم أخذت ونقلت.

والمهتمون بتفسير حركة التحضر كثير، بعضهم ذهب، والبعض ما زال حيًا، وهؤلاء من الأفضل الانتظار حتى تستقر اجتهاداتهم، لأن الإنسان يمكن أن يغير قناعاته، كما يمكن أن يستفيد من النقد الذي يوجه له، أو لأمثاله.

١- عبد الرحمن بن خلدون:

ولد ابن خلدون[(١)] (٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م) في مدينة تونس، وتوفي عام (١٤٠٦م) من أسرة عربية من حضرموت، تعلم العلوم العربية والإسلامية، وقد تتلمذ على ابن رشد الفيلسوف. وقد قام بكثير من الأسفار، ما بين الأندلس والمغرب ومصر والحجاز والشام وسمرقند.

اشتغل في بداية حياته بالتدريس والخطابة والقضاء، كما اشتغل بالسياسة حتى وصل إلى وظيفة «حاجب»، كما مارس البحث والتأليف، وخاض في بحور السياسة، فتقاذفته أمواجها بين نفي وأسر، وأوشك أن يدفع حياته ثمنًا لذلك. كما قام بمفاوضة التتار، وقد أعجبوا بكفاءته كثيراً، وبعد أكثر من عقدين من العمل السياسي، صعد

---

(١) لقد درست ابن خلدون من زاوية إيمانه بدورة التحضر، وهنا أدرسه بشكل عام.

خلالها إلى القمة وهبط إلى السجن، بعدها اعتزل السياسة ليتفرغ لكتابة التاريخ، ثم ليحاول الانتقال إلى مفسر له، راصد لحركة التحضر، واضعًا نظرية في علم العمران.

يقول عنه توينبي[1]: «إنه في مقدمته التي وضعها لكتابه في التاريخ، بلا ريب أعظم عمل من نوعه ابتكره أي عقل، في أي عصر، في أي بلد».

وقد وصفه «جمبلوفتش» وصفًا رائعًا، فقال[2]: «لقد أردنا أن ندلل على أنه قبل أوجست كونت، بل قبل فيكو ،جاء مسلم تقي، فدرس الظواهر الاجتماعية بعقل متزن، وأتى في هذا الموضوع بآراء عميقة، وأن ما كتبه هو ما نسميه اليوم: علم الاجتماع».

ويعتبره د. قسطنطين زريق[3]أبرز باحث في الحضارة، في اللغة العربية، بل أول من عالج شؤون الحضارة بصورة منظمة، في أي لغة من اللغات، لذا فقد استحق أن يعتبر المؤسس لعلم الحضارات، أو كما دعاه «علم العمران البشري والاجتماع الإنساني».

ويصفه د. معن زيادة بأنه جمع بين رجل التاريخ والفكر[4]: «كان

(١) ابن خلدون، حياته وتراثه الفكري، محمد عبد الله عنان، لجنة النشر والترجمة، ص١٨٨.

(٢) المرجع السابق، ص١٨٠.

(٣) في معركة الحضارة، ص٢٨.

(٤) مجلة الفكر العربي، بيروت، العدد ٤٣، عام ١٩٨٦م، ص٢٠٦.

ابن خلدون، قبل أن يكون مؤرخًا، مفكرًا من مفكري عصره، بل مفكرًا من القلائل، الذين يشعرون بالمسؤولية التاريخية، أمام أحداث عصرهم، وكان إلى جانب ذلك رجلاً من رجال السياسة، من أولئك الذين برزوا إلى الميدان، وجربوا مسؤوليات الحكم وخيبته، في أشد الأوضاع تعقداً، وفي فترة حاسمة من فترات الحضارة العربية الإسلامية.

لقد أثبت ابن خلدون مقدرة ملحوظة في ميدان العلوم الفلسفية والعقلية عمومًا، كما أثبت كفاءة نادرة ومهارة ما بعدها مهارة في السياسة، وقد وصل إلى أهم المناصب، وبلغ أعلى السلم صعوداً، قبل أن ينسحب انسحابًا منظمًا ليتفرغ لكتابة المقدمة والتاريخ.. لقد وصل إلى التاريخ عن طريقين: طريق التأمل العقلي، وطريق التجربة السياسية الفنية، ولعل الطريق الثانية هي التي قادته إلى الأولى».

في رحلته الطويلة، وبعد خوض السياسة، توجه إلى الخلوة في «قلعة سلامة» ليتفرغ إلى كتابة التاريخ وعلم العمران، وقد بقي معتكفًا في القلعة حتى عام (٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م). وقد استخدم تجربته السياسية، مازجًا ذلك بمعارفه الواسعة، ومن الاثنين رسم علم العمران.

وإذا كان كل إنسان تشغله تجاربه الخاصة، فثراء حياة ابن خلدون العلمي واشتغاله بالسياسة جعله يشعر بوجود «فراغ سياسي»، وأن أمته تدور في حلقة مفرغة من الحروب والفتن، كما شاهد تشرذم الإمارات في الأندلس، وسقوطها الواحدة تلو الأخرى بأيدي الإسبان. ثم تحول إلى

الشمال الإفريقي، ليجد فتنة جديدة، حيث وصل بدو بني سليم وبني هلال، فعاثوا في المنطقة فساداً، وأسقطوا إمارات منها إمارة «بجاية»، والذي كان ابن خلدون يشغل وظيفة «حاجب» فيها، وهو أعلى منصب بعد الأمير، وقد انتدب لمفاوضة هؤلاء البدو، وأوشك أن يقتل على أيديهم، ومن هنا جاءت نقمته على البدو والأعراب بشكل عام.

فإذا أضفنا لذلك رحلاته وما رأى في العالم الإسلامي، ومفاوضاته للتتار، والذي يبدو لي أن ما رآه حمله أن يبحث له عن تفسير في التاريخ، الذي قاده إلى كتابة «المقدمة»، التي هي أثمن من التاريخ بكثير.

إن مفكراً كابن خلدون تتاح له فرصة التجول في العالم الإسلامي، ليرى على الواقع ما وصلت إليه أمور الأمة، لا شك سيدفعه للتفكير الجاد: لماذا يحدث كل هذا، وأين الحل؟

إن خلوة ابن خلدون مدة زادت على أربع سنوات في قلعة «سلامة»، مكنته من كتابة تاريخ، جعل عنوانه: «العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر».

والكتاب لا جديد فيه، لكن الجديد في تلك المقدمة الطويلة، وربما وجد لأول مرة، مقدمة أهم من الكتاب بكثير. فقد بسط كل ما لديه من علم ومعرفة في هذه المقدمة، فجاءت شيئًا ثمينًا، بل متقدمة جداً على العصر الذي كتبت فيه، وهي تحوي على ستة فصول[1].

---

(١) الفلسفة الاجتماعية، د. حسين رشوان، الطبعة الثانية، ص٨٦.

ما حوته المقدمة:

١- في العمران البشري: وهي تقابل «علم الاجتماع العام»، وقد درس ابن خلدون ظواهر المجتمع البشري، والقواعد التي تسير عليها المجتمعات.

٢- في العمران البدوي، وقد درس الاجتماع البدوي، كاشفًا أهم خصائصه المميزة، وأنه أصل الاجتماع الحضري وسابق عليه.

٣- في الدولة والخلافة والملك: وهو يقابل «علم الاجتماع السياسي»، وقد درس قواعد الحكم والنظم الدينية وغيرها.

٤- في العمران الحضري: وهو ما يقابل «علم الاجتماع الحضري»، وقد شرح كافة الظواهر المتصلة بالحضر، وأصول المدنية، وأن التحضر هو غاية التمدن.

٥- في الصنائع والمعاش والكسب: وهو ما يقابل «علم الاجتماع الاقتصادي»، وقد درس تأثير الظروف الاقتصادية على أحوال المجتمع.

٦- في العلوم واكتسابها: وهو ما يقابل «علم الاجتماع التربوي»، وقد درس الظواهر التربوية، وطرق التعلم وتصنيف العلوم.

كما درس الاجتماع الديني والقانوني، رابطًا بين السياسة والأخلاق. لقد استودع ابن خلدون «مقدمته» كل خبراته المعرفية والسياسية، ولأن البيئة لم تكن مهيئة، لم يستفد أحد من كل ذلك.

الإنسان والتمدن:

يعتقد ابن خلدون بأن الإنسان مدني بطبعه، ولذا فهو ميال

للاجتماع ببني جنسه، يدفعه في ذلك أكثر من دافع[1]:

١- الضرورة: ولها جانب اقتصادي ودفاعي، فالإنسان لا يحصل على حاجاته إلا بمعونة من الآخرين، والصراع بين البشر والحيوان يدفع بالإنسان إلى الاحتماء بالآخرين، والتعاون معهم لهذا الغرض.

٢- الشعور الفطري: فالإنسان يميل فطريًا للاجتماع بأخيه الإنسان، يأنس به ويسر للقائه.

٣- ميل الإنسان لتحقيق فكرة الجمعية وذاك بإرادته.

الإنسان والحكومة:

يرى ابن خلدون أن الإنسان حين وجد العدوان من أخيه عليه، حمله ذلك على اصطناع الحكومة، من أجل كبح العدوان البشري.. ومن إدراكاته الجيدة رسم العلاقة بين الدولة والمجتمع، فهو يرى أن بينهما نوعًا من «التلازم» فالدولة تتسم بالقهر والغلبة، وبلون من ألوان الإكراه، والذي هدفه المصلحة العامة.

ويكرر ضرورة الربط بين السياسة والأخلاق، معتبراً الأخيرة الموجه والهادي إلى السياسة، وأن الأخلاق تكسب الدولة قوة واحترامًا. كما أن الدعوة «الدينية» تزيد في قوة الدولة.. ويعتبر الحروب ظاهرة اجتماعية قديمة، سببها انتقام بعض الناس من بعض.. ولو عاش ابن خلدون اليوم،

---

(١) الفلسفة الاجتماعية، د. حسين رشوان، ص٩٠.

لوجد للحروب أسبابًا جديدة، كل الجدة، وربما كانت لتجريب سلاح، أو بيعه، أو للضغط على حاكم أو نظام مكروه مشاكس.

أما أسباب «الانتقام» في نظره، فهي كثيرة، كالمنافسة أو العدوان، أو غضب لله ودينه، أو غضب الحاكم لنفسه.. عن الكسب والاكتساب يرى أنه يكون بالسعي والقصد والتحصيل. وفي العلم والتعلم يرى تميز الإنسان عن كافة المخلوقات «بالفكر» الذي نشأت عنه سائر العلوم والصناعات، وهو من هموم البشر.

التاريخ وشروط المؤرخ:

تقدم أن ابن خلدون اعتكف في قلعة «سلامة» فكتب مؤلفه في التاريخ ومقدمته المشهورة، لذا من الطبيعي أن يتحدث عن الشروط الواجب توفرها في كتابة التاريخ، وهي تصور منهج الرجل وفهمه.

يقول في التاريخ[1]: «هو في ظاهره لا يزيد على إخبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأول، تنمو فيه الأقوال، وتضرب فيه الأمثال، وتطرف به الأندية، إذا غصها الاحتفال، وتؤدي لنا شأن الخليقة، كيف تقلبت بها الأحوال، واتسع للدول فيها النطاق والمجال، وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال... إن في باطن التاريخ نظرًا وتحقيقًا، وتعليلاً للكائنات ومباديها دقيقًا، وعلمًا بكيفيات الوقائع وأسبابها عميقًا...

---

(١) من المقدمة، ٢٠٩/١.

إن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة، ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة، والانتقال من حال إلى حال، وكما يكون في الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار، سنة الله التي قد خلت في عباده».

ولولا هذا السجع والذي لم نألفه في كتابات ابن خلدون، لكان الفكر التاريخي غاية في الروعة، ففي التاريخ عبر، نعم، ولم يفرد الله تعالى ثلث كتابه للحديث عن الأمم الماضية، وبيننا وبينها ألوف السنين، إلا للعبرة في ذلك، وإلا لم يحفل القرآن بكل ذلك.

ولعل من الإدراكات الجيدة القول: بأن أحوال العالم في تغير، وهي لا تسير على منهاج واحد، بل الانتقال المتواصل من حال إلى حال، يستوي في ذلك المؤمن والكافر.

إن عناية ابن خلدون بالتاريخ، ورغبته في الحصول على تفسير جيد لدوراته، لم يجعله يقبل كل خبر مسطر، ولو كان المؤرخ ثقة، لأنه في العادة ينقل عمن تقدمه، وذلك المتقدم قد يكون غافلاً أو كاذبًا أو متحزبًا أو صاحب مصلحة، وكل ذلك يجعل المؤرخ على حذر فيما ينقل.

لقد وجد كتب التاريخ مشحونة بالمبالغات والأغلاط، لذا فقد تطلع إلى وضع منهج جديد يمنع من السقوط، وقد وضع سبع قواعد جيدة، بل رائعة، لعمل المؤرخ[1]:

---

(١) مجلة الفكر العربي، مرجع سابق، ص٢١٢.

١- تجنب التشيع للآراء والمذاهب، ومعلوم أن التشيع لطرف هو عدو الموضوعية، ولا يتصور اجتماعهما في شخص واحد.

فالتشيع يدعو للقبول أو الرفض دون محاكمة، فإذا كان الإنسان محايداً أو على حال «الاعتدال في قبول الخبر» فإنه يعطيه حقه من التمحيص والنظر، كي يتبين صدقه من كذبه، فإن خامر النفس تشيع لرأي أو نحلة، فالإنسان يقبل ما يوافق هواه من الأخبار، حتى يكون ذلك التشيع غطاء على عين بصيرة النفس، فتقع في قبول الكذب ونقله.

٢- تمحيص الروايات، وعدم الثقة بالناقلين، وذلك عن طريق البحث والنقد، «فلا يرجع -أي المؤرخ- إلى تعديل الرواة، حتى يعلم أن ذلك الخبر في نفسه ممكن أو ممتنع، وأما إذا كان مستحيلاً، فلا فائدة للنظر في التعديل والجرح».. وهذا منهج جيد، يبدأ المؤرخ بالخبر وليس براويه.

٣- معرفة جيدة بالمقاصد: فالذهول عنها يجعل المؤرخ ينقل الخبر على حسب ظنه وتخمينه، فيقع في الكذب دون أن يعلم ذلك.

٤- إن منح الثقة لمؤرخ سابق، يجعل اللاحق يتوهم صدقه فيما نقل، وليس من تلازم بين ثقة المؤرخ وسحب هذه الثقة على كافة نقوله، فثقة المؤرخ بالناقل قد تجعله يتوهم صدق ما نقل، فيقع في الخطأ.

٥- ينبغي العمل على كشف الخداع والتلبيس والكذب في الأخبار، فالمؤرخ قد يكون على حال من «الجهل بتطبيق الأحوال على الوقائع، لأجل ما يداخلها من التلبيس والتصنيع، فينقل الخبر على غير الحق».

٦- ينبغي للمؤرخ أن يبتعد عن محاولة الكسب، من خلال تقربه لأصحاب السلطة، فالنفوس مولعة بحب الثناء، والناس متطلعون إلى الدنيا وأسبابها من جاه أو ثروة.

والمشكلة كبيرة، فإذا كتب التاريخ في عهد أصحابه، برزت الحسنات، وضاعت وذابت السيئات، فإذا كتب فيما بعد، وعلى زمن وفترة معادية، برزت السيئات واختفت الحسنات، وما شاهدناه من إعادة كتابة التاريخ بعد سقوط نظام خير دليل على ذلك.

٧- ينبغي أن يكون المؤرخ عارفًا بطبيعة الحوادث والأخبار، فإن «الجهل بطبائع الأحوال في العمران، إذ لكل حادث من الحوادث ذاتًا أو فعلاً طبيعة تخصه في ذاته، وفيما يعرض له من أحواله، فإذا كان السامع عارفًا بطبائع الحوادث والأحوال في الوجود ومقتضياتها، أعانه ذلك في تمحيص الخبر، على التمييز بين الصدق والكذب، وهذا أبلغ في التمحيص من كل وجه».

أذكر وأنا أقرأ «التوراة» أنها تذكر معارك بين اليهود وأهل المنطقة، فتذكر أرقامًا كبيرة جداً، لا يتصور وجودها قبل ألوف السنين، فتذكر أن طرفًا شارك بـ(٦٠٠) ألف مقاتل، والطرف الثاني بـ(٤٠٠) ألف مقاتل، وهذا مستحيل عقلاً، ولذا راحوا يحذفون صفراً فيصبح العدد (٦٠، ٤٠) ألفًا، ليتحول العدد أخيراً إلى (٦، ٤) آلاف فقط.

لقد تنبه ابن خلدون إلى وجود تاريخ للحضارة يتمثل في تقدمها العلمي والعمراني أو تخلفهما، إلى جانب تاريخ سياسي للأمة

والحضارة، قد يسيران جنباً لجنب، وقد يفترقان، فيتقدم واحد دون الآخر، كما لم يبالغ في استخلاص النتائج من دراساته التاريخية، كما يفعل بعض القائلين بـ « الحتميات »، كما لم يسقط في الفروض والتخمينات، ولكن تأثر إلى حد كبير بما رآه وعاشه، في الأندلس والشمال الإفريقي وسائر البلاد التي زارها.

منهج ابن خلدون في البحث:

يرى د. حسين رشوان أن ابن خلدون يتبع في بحثه « المنهج العضوي »[1] فالدولة في نظره كائن عضوي حي، يولد ويموت، لها بداية ونهاية، تخضع لعوامل النمو والفناء، وقد قدر عمرها بثلاثة أجيال، في حدود « ١٢٠ » سنة. ومعلوم أن هناك دولاً عاشت أضعاف ذلك، مثل العباسية والعثمانية، وغيرهما كثير. ونتيجة لسياحته في العالم الإسلامي، فقد وجد اختلافًا بين المجتمعات، لذا راح يقرر أن أحوال المجتمع لا تسير على وتيرة واحدة، بل تتغير وتتبدل.

عوامل التغيير:

يعزو ابن خلدون عوامل التغيير إلى أكثر من عامل واحد، مثل عدالة الحكم، واتساع رقعة الدولة وسلطانها، والعوامل الاقتصادية.

---

(١) بحث مقدم للندوة الدولية حول الدراسات والأبحاث العلمية في الحضارة الإسلامية، عام ١٤٠٩هـ، ص٢١.

نظرية ابن خلدون في العمران:

يلخص د. الشكعة نظرية ابن خلدون في العمران كما يلي[1]:

١- التاريخ خبر عن الاجتماع الإنساني، أي العمران البشري، لذا يجب تنقيته من الزيف، وتصويب أخطائه، وهذا هو المنطلق الأول لتصور العمران البشري.

٢- الملك المنظم ضرورة للعمران، من أجل الحفاظ على المجتمع، وتنظيم شؤونه، وحماية الثغور، وجباية الأموال، ودفع الظلم، وتحقيق العدل، وعمران الأرض، وإسعاد الناس في دنياهم، وتهيئة الأسباب للسعادة في أخراهم، وذلك بحملهم على اتباع الشريعة، وضبط أمورهم.

٣- يقوم بنظام الحكم «خليفة» أو إمام، يحكم وفق الشريعة الإلهية.

٤- العلم والتعلم عنصران أساسيان للعمران، فكلما ازدهر العمران صارت سوق العلم نافقة، وتقدم المجتمع، والعكس بالعكس.

٥- لا يتم العمران إلا بوجود صنائع، مثل الفلاحة والصناعة والتجارة، فعليها يتوقف رفاه المجتمع وانتعاشه.

٦- للدول أعمار مثل الأشخاص، تبدأ قوية بقيادة منشئها، فإذا انتهى الجيل الثالث تشرف على الزوال، أما الازدهار فيقع على الجيل الثاني.

٧- العصبية تؤدي للغلبة والقوة، وتتطلع للرئاسة، والرئاسة تتطلع للملك، ولذا فالملك لا يقوم إلا بالعصبية، ويظل قوياً بقوتها، ويضعف بضعفها.

---

(١) الفلسفة الاجتماعية، ص٩٤.

٨- البداوة أصل الحضارة، والعمران البدوي أصل الحضري، ولكل عاداته وسلوكه، والمجتمع الحضري أكثر قابلية للتبدل، وتبدله يصل لقمة العمران، ثم يبدأ بالتقلص والانحسار، في حقب زمنية تشبه القانون.

الدولة والتشريع:

ينظر ابن خلدون للتشريع كشرط لبقاء الدولة، فالدولة متى خلت من تشريع يستهدف حماية الناس، فإن الأمر لا يستتب لها، كما لا تتم سيطرتها على الأمور، وكل هذا من سنن الله في عباده.

وهذه التشريعات إما أن تكون إلهية المصدر، فتكون سياسة دينية، وإما أن تكون مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وأهل النظر فيها، فهي سياسة عقلية.. إن التشريعات الإلهية تكون نافعة في الدنيا والآخرة، ذلك أن الخلق ليس المقصود دنياهم فقط، لأنها لهو وزينة، وغايتها ونهايتها الموت، والله تعالى يقول: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ (المؤمنون: ١١٥).

فالمقصود إنما هو دينهم، المفضي إلى سعادتهم في آخرتهم، فجاءت الشرائع بحملهم على ذلك، في جميع أحوالهم، من عبادة ومعاملة، وحتى في الملك الذي هو طبيعي للاجتماع الإنساني، فأجْرته على منهاج الدين، ليكون الكل محوطًا بنظر الشارع[1].

إن ابن خلدون يرى نوعين من الحكومة: واحدة تعتمد التشريع

---

(١) من المقدمة، ص١٩٠.

الإلهي، وأخرى تعتمد التشريع الوضعي. وهو ينص على وجوب نصب «خليفة» ليقوم بأمر الدين والدنيا معًا. وقد كتب فصلاً كاملاً في «المقدمة» تحت عنوان «العمران البشري لا بد له من سياسة ينتظم بها أمره»، لينتهي إلى ضرورة الاستناد إلى شرع منزل متى وجد.

ابن خلدون والمدرسة الحيوية:

يرى د. حسين رشوان أن ابن خلدون من أنصار المدرسة الحيوية[1]، فقد اعتمد في دراسته للمجتمع على دراسة الفرد، ومن ثم قال بأنه يولد مثل الفرد، ويمر بأطوار الطفولة والشباب والرجولة والشيخوخة، كما أنه يمارس السياسة وكتابة التاريخ، متخذاً من تجاربه الخاصة مادة للكتابة، ويتضح ذلك جليًا من موقفه من البدو، الذين شن عليهم أكبر حملة، لأنهم جاءوا للشمال الإفريقي من مصر، وعاثوا في الأرض فساداً، وأسقطوا أمير بجاية وابن عمه كذلك.

٢- هيجل والتفسير المثالي:

هيجل فيلسوف ألماني عاش ما بين (١٧٧٠-١٨٣١م)، صاحب اتجاه في «وحدة الوجود»، من المتأثرين بكل من «كانت وفخته وشبلنج»، وقد كان له تأثير كبير على الفكر الألماني، صاغ أفكاره بأسلوب صعب، بحيث يحتمل أكثر من تفسير، وقد ظهر ذلك جليًا في استشهاد تلاميذه -على اختلاف توجهاتهم- بما كتبه، فالمؤمنون منهم والملحدون يجدون لهم شواهد فيما كتبه هيغل، تؤيد دعواهم.

---

(١) الفلسفة الاجتماعية، ص٩٦.

وقد طور الجدل «الديالكتيك» ليجعل منه طريقة خاصة بالبحث، وأسلوبًا في المناظرة[1]: «أصبح طريقة لتفسير الواقع، وقانونًا كونيًا عامًا، ينطبق على مختلف الحقائق، وألوان الوجود، فالتناقض ليس بين الآراء ووجهات النظر فحسب، بل هو ثابت في صميم كل واقع وحقيقة، فما من قضية إلا وهي تنطوي في ذاتها على نقيضها ونفيها. وكان هيغل أول من أشاد منطقًا كاملاً على هذا الأساس... لقد أنشأ فلسفته المثالية كلها على أساس هذا «الديالكتيك»، وجعله تفسيرًا كافيًا للمجتمع والتاريخ والدولة، وكل مظاهر الحياة، وقد تبناه بعده «ماركس» فوضع فلسفته المادية في تصميم ديالكتيكي خالص.

فالجدل الجديد –في نظر أصحابه– قانون للفكر والواقع على السواء، فهو طريقة تفكير، ومبدأ يرتكز عليه الواقع في وجوده وتطوره».

يتصور هيجل أن التاريخ عبارة عن صراع للمتناقضات[2]: «فكل قضية في الكون تعتبر إثباتًا وتثير نفيها في نفس الوقت، ويأتلف من الإثبات والنفي إثبات جديد، فالمنهج المتناقض للديالكتيك أو الجدل الذي يحكم العالم يتضمن ثلاث مراحل، تدعى: الأطروحة والطباق والتركيب.. وفي تعبير آخر: الإثبات والنفي ونفي النفي.. وبحكم هذا المنهج الجدلي، يكون كل شيء مجتمع مع نقيضه، فهو ثابت ومنفي، وموجود ومعدوم في وقت واحد».

---

(١) فلسفتنا، محمد باقر الصدر، ص٢٢١.

(٢) المرجع السابق، ص٢٢٣.

حركة التحضر عند هيجل:

لهيجل تصور خاص في حركة التحضر، فهو يفسرها أو يتصورها، كصراع بين متناقضات، ويطرحها على الوجه التالي، باختصار[1]:

١- كل فترة في تاريخ الحضارة، تمثل وحدة مستقلة، وإنَّ ملامحها السياسية والاقتصادية والأخلاقية والاجتماعية والدينية والفنية، كلها جوانب «للمجموع الحي»، ومنها جميعًا يتكون كيان متجانس.

٢- كل فترة أساسية تنمي فكرتها الرئيسة إلى الحد الأقصى، ثم تولد أضدادها أو نقائضها، ويستمر الصراع هكذا، حتى تتحد المتناقضات في وحدة عليا «الموحد أو الجامع»، فتكون أفضل من الفكرة ونقيضها، ثم ينحل هذا «الجامع» ليتولد عنه فكرة جديدة ونقيض، وهكذا يستمر الحال، كل فكرة تصارع نقيضها، لتنتج جامعًا، وكل جامع أو موحد يفرز نقيضًا، ويستمر الصراع حتى تصل الفكرة إلى «المطلق» الذي يخلو من التناقض والصراع[2].

ولتقريب الفكرة، أذكر مثالاً ضربه هيجل:

أ- عهود السلطة المطلقة في الحكم (فكرة).

ب- يعقبها عهود فوضى (نقيض).

(١) فلسفتنا، ص٢٢١؛ تفسير التاريخ، صديقي، ص٦١؛ نحو فلسفة علمية، د. زكي نجيب محمود، ص٣٤٣.

(٢) تاريخ الفلسفة، يوسف كرم، ص٢٧٥.

جـ- منها يأتي عهد دستوري، هو خير من الاثنين.

٣- إن جوهر التطور لدى هيجل هو ما يفرزه وينتجه «صراع المتناقضات»، حيث تحمل كل فكرة تناقضاً داخلياً، يدفعها إلى الإمام، ثم لا تلبث أن تتحطم لتتحول إلى شيء جديد، أفضل من الفكرة والنقيض، وهو يحمل التناقض، وبفعل الصراع يكوّن فكرة جديدة ونقيض، وهكذا.

٤- تبنى هيجل، وتابعه الماركسيون، أن كل عهد من عهود الحضارة يأتي يكون أرقى وأفضل من سابقه، على اعتبار أن «الجامع أو الموحد» يكون دوماً أفضل من الفكرة ونقيضها، وهذا يشكل خطوة للإمام، والحضارة اللامعة تكون أفضل من سابقتها كذلك. ولم يقفوا عند هذا الحد، ولكن قالوا: إن الحضارة في رقي دائم، لا سبيل إلى مقاومته[1]. وأصل الفكرة نادى بها بعض فلاسفة اليونان، ثم جاء هيجل ليفسر بها حركة التاريخ، وعنه أخذها الماركسيون.

والإنسان يتمنى حقاً أن تكون الحضارة كذلك، لكن الذي نشاهده أن الحضارة قد تتقدم بعض مكوناتها دون بعض، فهي ليست كائناً عضوياً، أما أن تتقدم كافة مكوناته أو تتأخر، فالحضارة -كما تقدم- خليط من أفكار ومعتقدات وتشريع وآداب وفنون ومنشآت مادية، جمعت في زمان ومكان، لذا فإن بعضها قد يتقدم والبعض الآخر قد

---

(١) في معركة الحضارة، ص٢٩١.

يتوقف، على حين تتأخر مكونات أخرى. ولو كانت الحضارة في تقدم تام، لا سبيل لإيقافه، فكيف تنحل وتسقط؟

٥- يطرح هيجل معادلة فيقول: كل ما هو معقول فهو حقيقي، وكل ما هو حقيقي فهو معقول.

والمطلوب أن يحدد لنا هيجل وكذلك تلاميذه، معنى المعقول والحقيقي، لكن الذي وجدناه لدى تلاميذ هيجل غريب، فالمتدين يقول: الدين معقول فهو حقيقي، والتملك معقول فهو حقيقي، بينما يقول تلميذ لهيجل ملحد: إن الدين غير معقول، ولذا فهو غير حقيقي، وهكذا، وهذا ثمن الغموض في الصياغة.

تعقيب ومناقشة:

نسلم أن الصراع بين الميول والاتجاهات المتقاربة حقيقة من حقائق الحياة، وقد نجد أكثر من آية في كتاب الله تشير لذلك، منها: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ ﴾ (الحج: ٤٠).

وقوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ (البقرة: ٢٥١)، فالتدافع بين البشر حقيقة من حقائق الحياة، وسنة من سننها، قديمًا وحديثًا، على مستوى الأفراد والأنظمة والدول والثقافات والحضارات.

كذلك فإن أي نظام -على مستوى القطر أو الحضارة- يحقق أغراضه، ويستوفي مبررات وجوده، فهو لا يلبث أن ينحل ويسقط، ليقوم نظام جديد مكانه يهدم الأول، ليبني على أنقاضه، وهكذا.

وكل نظام وكل نسق حضاري يريد أن يستمر، ويجاهد في ذلك، لكنه متى ما فسد وتعفن، واستوفى مبررات وجوده، فليس أمامه إلا السقوط. والشجرة إذا ماتت لن ينفعها كثرة الري، بل ستتعفن جذورها، لتسقط في أقرب وقت.

ويبدو أن هيجل توسع في قضية (الصراع) حتى جعله كل شيء، وجاء تلاميذه من الماركسيين ليعلنوا بقوة: أن تاريخ البشرية ما هو إلا صراع بين طبقات المجتمع، من أجل المادة وبسببها.

ولو أمكن أن أعدل في هذا الطرح «الهيجلي» لقلت: إن الفكرة تحرك نقيضها، لكنها لا تلد ذلك النقيض، هذه قضية، والقضية الثانية أن مصطلح «النقيض» الذي يستعمله هيجل ليس هو النقيض المعروف لدى علماء المنطق، فهناك تميز ونقيض، وجل أمثلة هيجل من النوع الأول «التميز» وليس من النقيض.

وهناك أمثلة أخرى يضربها هيجل لا علاقة لها بالتناقض، فهو يقول مثلاً: زهرة الرمان (فكرة) والكأس (نقيض)، ومن الاثنين تأتي ثمرة (الرمان) وهي أفضل من الزهرة والكأس، أقول هذا ليس تناقضاً.

كذلك لا يجد الدارس لما كتبه هيجل عن الفكرة والنقيض فصلاً، بل يجد امتزاجًا أو اشتراكًا، لكنه لا يجد نقيضًا.

القضية الأخيرة لرسم العلاقة بين المعقول والحقيقي غير واضحة، واستعمال تلاميذه لها خير دليل.

ومع ذلك فهل يعتبر هيجل النصر في الحرب هو الحقيقة أو المعقولية؟ إن كان كذلك فقد ينتصر مبطل، وقد ينهزم محق، فليس كل منتصر يمثل الحق، ولا كل منهزم يمثل الباطل، بل القوة لا تنشئ حقًا، ولكنها قد تستعمل في حمايته وحراسته.

٣- أزولد اشبنجلر[١]:

عرف أزولد اشبنجلر بمؤلفه «تدهور الحضارة»، فقد كان قويًا في طرحه، جريئًا في أفكاره، غير حذر ولامتحفظ، لذا رأينا مفكرًا ومؤرخًا مثل «توينبي» يصرح بمخالفاته لاشبنجلر ومؤلفاته، فلقد شن عليه هجومًا كبيرًا، وقد استفاد من ذلك كل من جاء بعده.

وقد تقدم إيمانه بدورة الحضارة، وتقسيمها إلى دور سابق، ودور الحضارة الفاعلة، ودور الحضارة المستنفذة.

وهو يكرر في كتابه (تدهور الحضارة) أن حضارة اليوم وصلت إلى الدور الأخير، وهي سائرة إلى الانحلال، ومن هنا جرى الهجوم الشديد عليه، وعلى رأيه في هذه الحتمية، فصنف بأنه يؤمن بالجبر، وقد راح

---

(١) تدهور الحضارة، ترجمة أحمد الشيباني، ٢١٨/١، مكتبة الحياة، ص١٢؛ وفي معركة الحضارة، ص٦٤؛ وفلسفة الحضارة، ص١٩٥.

« توينبي » يعيد ويكرر أنه لا يشارك اشنبجلر آراءه في الجبر، بل يؤمن بالاختيار. كما هوجم تشبيهه الحضارة بالإنسان على نحو الفصول الأربعة في دورانها، وهوجم كذلك قوله بأن كل الحضارات تظهر وتكتمل وتموت في أوقات معاصرة، وأن كل حضارة تمر بنفس الأدوار، التي مر بها من سبقها، وكذلك اكتمالها وظهور الإبداع فيها. بعض الذين هاجموا اشبنجلر يرون أنه سقط في أخطاء تاريخية كذلك. وكل هذا النقد الشديد أفاد منه من جاء بعده فراح يتبرأ من ذلك.

والذي أعتقده أن الإنسان العاقل لا يمكن أن يكون كل ما يطرحه خطأ، وإلا فليس بعاقل، ولا يمكن أن يكون كل ما يطرحه صوابًا، لأنه يجب أن يكون معصومًا من الخطأ، ولا معصوم سوى الأنبياء، وفيما يبلغون عن الله تعالى، وخارج هذه الدائرة لا معصومية، ومن يتصورون وجود معصوم -غير نبي- فأدلتهم هزيلة، وتناقضاتهم كثيرة.

٤- أرنولد توينبي[١]:

مؤرخ إنجليزي ،ولد في لندن، وتخرج في جامعة أكسفورد المعروفة، واشتغل بالتدريس فيها حتى عام ١٩١٥م، والتحق بقسم الاستخبارات السياسية، ثم أستاذًا للتاريخ واللغة الإغريقية بجامعة لندن، ثم أستاذًا وباحثًا ومديرًا للدراسات بالمعهد الملكي للشؤون الدولية.. ألف كتابه

---

(١) الموسوعة العربية الميسرة، ص٥٦٦.

« تاريخ العالم »، وكان موقفه من اليهود عمومًا والصهيونية شديدًا، لذا شنوا عليه أكبر حملة، واتهموه بالجهل حتى باللغة الإنجليزية[1].

تبنى في منهجه الدراسي أن يدرس الحضارات، وليس الدول القومية، أو الجماعات السياسية. وحين يعدد الحضارات يعد منها: المصرية، السومرية، البابلية، الهلينية، الإيرانية، الهندوكية.. .إلخ، ويعد الحضارتين البدوية والعثمانية من الحضارات التي توقفت عن النمو.

نشوء الحضارة:

يطرح توينبي سؤالاً يتعلق بالعامل الذي أخرج الإنسان من الدور البدائي ودفعه إلى أجواء التحضر، وهنا يستعرض ما قاله المعنيون وذكروه من عوامل، فيتحفظ على أكثرها.. ثم يسجل أن الحضارات وجدت وقامت في أحواض الأنهر، لكنه يستدرك إذ لا يجد ذلك عامًا، فكم هي كثيرة أحواض الأنهر التي لم تعرف حضارة؟!

وتفسير ذلك سهل، فالإنسان والحيوان والنبات بحاجة للماء، ولذا كان يسكن قريبًا من الأنهار، ليستقي منها ويزرع، وليقيم حضارته أو تحضره، لكن ليس النهر هو السبب الأول، بل هو الإنسان، فوجود النهر عامل مساعد.. وقد يوجد أكثر من نهر، ولا تقوم الحضارة، لكن قيامها قديمًا بعيدًا عن الأنهر يجعلها في غاية الصعوبة.

---

(١) بالمناسبة فهناك أستاذ عربي بجامعة أمريكية، اتهمته زوجته بالجنون، فرد القاضي قائلاً: حسب علمي فإن جامعاتنا لا تعين المجانين أساتذة فيها.

نظرية التحدي والاستجابة:

يرفض توينبي تفسير التحضر أو حصره بعامل واحد، لذا نراه يقول[1]: «ليس السبب في نشوء الحضارات بسيطًا، ولكنه متعدد، وليس وحدة مستقلة، ولكنه علاقة مشتركة».. وقد طرح نظريته في (التحدي والاستجابة) معتبراً ذلك محركًا للإنسان بشروط، فالإنسان يستجيب للتحدي متى كان في حدود قدراته، وإلا عجز.

لذا راح يبحث عن صور التحدي، فحصرها مثلاً بتحدي الإنسان لأخيه، أو تحدي الطبيعة للإنسان. ثم راح يبحث في التراث الإنساني عن شواهد، فذكر ما حدث بين آدم عليه السلام والشيطان، والسيد المسيح عليه السلام والشيطان. وعن تحدي الطبيعة للإنسان، يذكر أن الجفاف الذي أصاب شمال إفريقيا، استجاب له الناس هناك على نوعين: نوع هاجر إلى وادي النيل، ليقيم حضارة هناك، وفريق بقي في مكانه، فبقي بدويًا في عيشه وقيمه.

ثم يذكر عوامل مماثلة، دفعت الإنسان في بلاد الرافدين، دجلة والفرات، ليقيم حضارة مبكرة. ثم يذكر أن حوض النهر الأصفر في الصين، كان يموج بالأدغال والغابات والوحوش والفيضانات والأملاح، فدفع ذلك التحدي الشعب الصيني إلى مكافحة هذه الآفات كلها، ثم ليقيم حضارته في حوض ذلك النهر.

---

(١) التفسير الإسلامي للتاريخ، عماد الدين خليل، ص٧٤.

أما تحدي الإنسان للإنسان فيرى:

أ- فئة مسيطرة في مدنية منهارة، تتحداها فئة مستقلة ومنفصلة عنها.

ب- فئة خارجية على حدود المواطن الحضرية، تتحفز لتقويض سيطرة الأولى، فتقوم بتقويض سيطرتها المتداعية، ومن ثم تقيم حضارة جديدة.

ومن هذه النظرة يفسر قيام الحضارة الغربية من الحضارة الهيلينية، بل سائر الحضارات اللاحقة للحضارات السابقة.

شروط التحدي:

يرى توينبي أن التحدي المفيد المنتج ينبغي أن يتوفر فيه:

أ- أن لا يكون صعبًا، بحيث يعجز الإنسان عن التعامل معه، بأن يكون فوق طاقاته وقدراته، فهذا التحدي لا يحرك الإنسان، بل يقعده، ويضرب مثالين لذلك:

مناطق الأسكيمو حيث البرد والثلج، فمثل هذا المناخ لا يمكن الإنسان من أن يقيم حضارة، ويظل كل همه منحصراً في الكفاح، كي لا يموت من الجوع أو البرد.

وأما المثال الآخر فالمناطق الصحراوية حيث الحرارة المرتفعة، والماء القليل، فالإنسان لا يستطيع إقامة حضارة، بل يكافح ليبقى حيًا.

ب- أن لا يكون التحدي سهلاً، بحيث لا يثير في الإنسان دوافعه للتحضر، ويضرب لذلك أمثلة بالجماعات التي تعيش في المناطق الاستوائية، حيث الشمس والمطر والجو المعتدل، فتلك الجماعات بقيت بدائية ولم تتحضر.

وغني عن القول: إن صعوبة التحدي وسهولته أمر نسبي، فما تعتبره أمة صعبًا قد لا تعتبره أمة أخرى كذلك.

أما تحدي البيئة للإنسان، فقد عد تونبي خمسة دوافع يمكن أن تستثير فاعلية الإنسان وجهده، من ذلك:

دافع الأرض الصعبة.. دافع الأرض البكر.. دافع النكبات.. دافع الضغط.. دافع العقوبات.

هذه الدوافع تستثير الإنسان، فتأتي الاستجابة المناسبة[1]. ثم يحاول الإكثار من الأمثلة على التحدي والاستجابة، ولأنه درس تاريخ العالم، فلا يصعب عليه العثور على الأمثلة التي تشهد لنظريته، من ذلك:

١- أن الزنوج في أمريكا كانوا يعانون الرق، ومن التفرقة العنصرية، وبعد إلغاء نظام الرق عام (١٨٦٠م) رسميًا، بقيت التفرقة العنصرية، فكيف استجابوا لهذا التحدي؟ يرى توينبي أن (الأسود) بعد أن وجد الموازين راجحة ضده في الدنيا، راح يتطلع إلى الآخرة، كما راح يكيف نفسه مع البيئة، وذلك عن طريق استكشاف طائفة من المعاني والقيم الطريفة في المسيحية، بعد أن تجاهلها أهلها، مثل: أن المسيح عليه السلام جاء ليعلي من شأن المستضعفين، وليس ليعزز مركز الأقوياء.

ويرتب توينبي على ذلك: أن يوفق الأفارقة السود، في إشعال النار في رماد المسيحية الخامدة، عساها تنبض بالحياة مرة ثانية، لكن الواقع

---

(١) في فلسفة الحضارة، ص٢١٠.

لا يشجع على هذا الاستنتاج، فالسود راحوا ينفصلون عن البيض كليًا، ويبتعدون عنهم، بعد أن كان الأبيض هو الذي يفعل ذلك.

القضية الأهم: أن الإنسان الأبيض، المعجب بنفسه إلى حد الغرور، لن يقبل من الأسود شيئًا، ولا حتى من الملونين، ولا أبناء العالم الثالث، فكل هؤلاء لا يحترمهم ولا ينظر إليهم بعين الرضا أو التقدير.

أما كيف وصل توينبي لهذا التصور، فهو يقارن بما حصل للعبيد في إيطاليا، حيث اعتنقوا المسيحية، فأقاموا ديانة جديدة حية قامت مقام ديانة لا حياة فيها.. وهذا القياس من الصعوبة قبوله، فإيطاليا الأمس ليس أمريكا اليوم، والظروف اختلفت كليًا.

٢- يذكر توينبي أن منطقة «الشرق الأوسط» تعرضت لتأثيرات حضارية، تنافي طبيعتها، وذلك حين تسربت إشعاعات ثقافية يونانية ورومانية للمنطقة، فشكلت قضية تحد، أما الاستجابة فكانت «اعتناق الإسلام».

ثم اندفع المسلمون لاسترداد مجد الشرق الأوسط، وترتب على ذلك أن استردوا للشرق الأوسط شخصيته، تلك الشخصية التي أهدرها العدوان الثقافي الهيليني مدة طويلة من الزمن، وهكذا أصبحت المدن الإسلامية مراكز حضارة مزدهرة[١].

إن هذا التفسير للإسلام يتعذر قبوله، فإذا كانت بلاد الشام عرفت

(١) في فلسفة الحضارة الإسلامية، ص٢٠٨.

الروماني فاتحًا ومستعمراً، فلم تعرف عنه حامل ثقافة، أو ناقل ثقافة، لقد كان فاتحًا مستعمراً وكفى.

أما الجزيرة ففيها قلة يهودية، ومثلها قلة نصرانية في اليمن وما حولها، ولم يكن لديها شيء تقدمه أكثر من شرب الخمور. وهؤلاء وأولئك عاشوا مع العرب، دون أن يشعر بهم أحد، ولذا فلم يشكلوا تحديًا لجمهور العرب الوثني، وحين حاربت قريش المسلمين في المدينة، تحالف اليهود معها، ضد المسلمين، الذين تربطهم بهم معاهدة، والذين يؤمنون بالله تعالى وكتبه ورسله.

لذا فتفسير ظهور الإسلام كاستجابة يصعب أو يتعذر قبوله، لكني أوافق بقوة على أن الإسلام رد للشرق الأوسط شخصيته، بل ما زال يملك ذلك، وربما كان الوحيد المالك، فمنذ سقوط الدولة العثمانية وحتى هذ اللحظة ما زال الإسلام هو الأقوى والأقدر على إنقاذ المنطقة ورد العافية إليها، وتجربة ثلاثة أرباع قرن تكفي لبيان ذلك، وعلى الذين يجادلون وينكرون ذلك أن يأتوا بالأدلة والشواهد، وقديمًا قال الشاعر:

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

٣- يعتقد توينبي أن تشتت اليهود كان من التحديات، وأن تجمعهم في فلسطين سيقضي على هذا التحدي، كما أن تجمعهم في فلسطين سيشكل تحديًا لأهلها أولاً، ولأهل المنطقة كلهم، وستكون الاستجابة تشتيتًا جديداً لليهود.

كما أن احتقارهم لكل الغرباء، واعتقادهم بأنهم شعب الله المختار، سيثير عليهم العالم[1]، «وذلك باعتبارهم جماعة شاذة، ما انفكت تتعمد عزل نفسها عن بقية الجنس البشري، وإن اقتضاهم ذلك مشقة وعناداً بالغين، وعرضهم لاضطهاد العالم ونقمته المتواصلة عليهم».

إن هذا النقد لا يطيق اليهود سماعه من أحد، لذا شنوا على توينبي أكبر حملة، واستخدموا كل ما لديهم من قوة، واتهموه بالتعصب للمسيحية، وأنه يتحدث كنبي، حتى وصل بهم الأمر أن اتهموه بالجهل حتى بلغته الإنجليزية، كما اتهموه بالسذاجة والسطحية وضيق الأفق، ووصفوا منهجه بالتخبط والتعالم والتكاثر بالمراجع، ليخدع القارئ. وزاد من نقمتهم عليه مناصرته للشعب الفلسطيني، ونفي أي حق لليهود، قائلاً: إذا كان الغرب اضطهدهم فليس على الشعب الفلسطيني أن يدفع الثمن. وكل هذا لم يعد أحد في الغرب يجرأ على قوله، وإن كان الكثير يسلم به ويعترف!!!

كيف تنمو الحضارة:

يدرس توينبي كافة النظريات في تفسير نمو الحضارة، فيراها تركز على الكم دون الكيف، فهي تسجل الانتصارات، وعلى رأسها العسكرية، بينما يرى توينبي أن التوسع العسكري قد يحصل مع هبوط الحضارة، وكثير من الدول كانت تلجأ للحروب الخارجية، هرباً من مشاكل

(١) في فلسفة الحضارة الإسلامية، ص٢١٧.

داخليـة وانقسـامـات في صف الأمـة.. كـمـا يرى أن التـقـدم العلمي والصناعي قد يحصل دون تقدم الحضارة، وقد يتلازمان.

وأخيراً فهو يرى أنه ليس من الضروري أن تنمو كل حضارة ناشئة حتى يكتمل نموها، وتصل إلى القمة، فقد تتوقف في مرحلة، بسبب عجزها عن التغلب على تحديات تواجهها، ويعد من الحضارات المتوقفة العثمانية والإسبارطية والبدوية.

من جهة أخرى يرى توينبي أن التغلب على تحد معين لا يكفي، بل لا بد من وجود قدرة على مواصلة الاستجابة للتحديات[1].

من قضايا النمو الحضاري:

ما هي المسائل الأساسية في قضايا النمو الحضاري؟

يستعرض توينبي جملة قضايا يقيس بها نمو الحضارة، منها[2]:

١- في مجال نمو الذات:

يرى توينبي أن تطور العلوم والفنون والصناعة، يسير نحو التبسيط، ففي الآلات مثلاً ابتدأ الإنسان بالأدوات البخارية، لينتقل إلى الآلات التي تشتغل بالوقود.. وفي مجال النقل البري، ابتدأ الإنسان بالقاطرات التي تسير على قضبان ثابتة، لينتقل إلى الحافلات والسيارات، التي لا تحتاج إلى قضبان.. وفي الاتصالات ابتدأ الإنسان بالتلغراف لينتهي باللاسلكي،

---

(١) التفسير الإسلامي للتاريخ، ص٧٧.

(٢) المرجع نفسه، ص٧٨.

وكل هذا التطور يساير رغبة في نفس الإنسان، كي يتحرر من العوائق.

٢- الفرد والمجتمع:

هل المجتمع هو الحقيقة، والفرد ذرة من ذراته فقط، أم أن الفرد هو الحقيقة، والمجتمع هو مجموع تلك الذرات؟

يرفض توينبي النظرتين معًا، ويرى[1] «أن المجتمع هو علاقة بين الأفراد، وهذه العلاقة تقوم على اتفاق في مجالات أعمالهم، اتفاقًا يجمعها على صعيد مشترك، وهو ما نسميه بالمجتمع»، وبناء على ذلك يكون المجتمع مجال عمل مشترك بين مجموعة من الناس، وأما الأفراد فهم ينبوع العمل، والنمو الحضاري أو التحضر يحصل عادة عن طريق المبدعين من الأفراد، وعن طريق الفئة الصغيرة من القادة الملهمين.

ويضرب لذلك مثلاً جيداً بالفلاح يحرث الأرض ويزرعها، فكل نبتة لها كيانها المستقل، لها ساقها وأوراقها، وهي تأخذ نصيبها من الغذاء والماء والشمس، ولكن هذا الحقل بمجموعه، يعود لفلاح زرعه للحصول على محصول واحد، فكل نبتة تمثل فرداً، والحقل يمثل المجتمع، وهو تمثيل جيد -وقد تقدم هذا- وهو قريب جداً من التصور الإسلامي.

٣- الاعتكاف والعودة:

عرف عن الفرد إنه قد يعتكف في مكان، مدة من الزمن ثم يعود إلى

---

(١) التفسير الإسلامي للتاريخ، ص٧٩.

مجتمعه، وكتب السيرة تذكر أن الرسول ﷺ كان يعتكف في غار حراء يتعبد، ثم يعود لأهله ومجتمعه، وتقدم أن ابن خلدون اعتكف سنوات في قلعة «سلامة» يكتب ويؤلف ثم عاد إلى مجتمعه وأهله.

هذه الظاهرة الفردية حاول تونيبي أن ينقلها إلى مجتمع أو دولة، معتقداً أن الأعمال الرائعة للإنسان تتم بحركة مزدوجة من الاعتكاف والعودة، بهدف تحقيق نوع من الصفاء للذات، واستلهام الحق، وتكون العودة من أجل هداية الأتباع، وتتضح الظاهرة في حياة عدد من الأنبياء.

لكن توينبي نقل هذا العمل من ميدان الفرد إلى المجتمع والدولة، فيرى أن إيطاليا فعلت ذلك قبل النهضة، وإنجلترا في العصور الوسطى، ثم عادتا لتساهما في نمو الحضارة الغربية. ويمكن أن أضيف هنا (اليابان)، فقد عاشت زمناً في عزلة عن جيرانها وكانت سنوات هدوء وسلام، ولم تغز اليابان بلداً، ولم يغزها أحد، ثم لتنطلق بعد ذلك[١].

٤- التنوع داخل الوحدة خلال فترة النمو:

يرى توينبي أن الحضارة النامية تشكل وحدة متماسكة، وحركة منتظمة، إلا أن تجارب الفئات المتعددة ليست متماثلة، إنها تختلف باختلاف الكيفية التي يستجيب بها الفرد أو الأقلية المبدعة أو المجتمع كله للتحديات المتتابعة، ومن هنا وجدت الفروق بين المجتمعات الصغيرة، في الحضارة الواحدة، وهنا تبرز الخصائص المميزة للحضارات

(١) للكاتب مؤلف حديث عنوانه: «في أعماق التجربة اليابانية»، طبع عام ٢٠٠٠م.

المختلفة، فهذه جمالية، وتلك دينية، وهذه علمية، وهكذا. إلا أن ناقديه رفضوا هذا التصنيف، فهم يرون في كل حضارة قدراً من الجمال، ودينًا تتبعه الأكثرية، وقدراً من العلم والمعرفة.

كيف تنحل وتسقط الحضارة:

كل متابع لحركة التحضر يراها كصاعد الجبل، يرتقي ويتسلق، حتى إذا وصل القمة -في رحلة تطول أو تقصر- راح يهبط إلى قاعدة الجبل، لم تشذ حضارة عن ذلك، وتتفاوت بطول البقاء وسعة السقوط، فكيف يفسر ذلك المهتمون بحركة التحضر؟

(اشبنجلر) يرى سقوط الحضارة حتميًا، لم تنج منه حضارة، والدور الآن على الحضارة الغربية.. ابن خلدون يراها دورة كاملة -كما تقدم- فكيف ينظر لها توينبي؟

إنه يرفض الحتميات كلها، وهو يستعرضها على الوجه التالي[١]:

١- القول بأن الكون صائر إلى الشيخوخة والزوال، ذلك لا يكون في القريب العاجل، من هنا فتأثيره على سقوط الحضارة بعيد.

٢- يرفض تشبيه الحضارة بالكائن الحي، فالحضارة تولد ثم تنمو ثم تشيخ وتموت، هذا لا يسلّم به، ذلك أن المجتمعات ليست كائنات عضوية، والمجتمع يمكن أن يجدد شبابه، أما الإنسان فلا.

---

(١) التفسير الإسلامي للتاريخ، د. عماد الدين خليل، ص٨٢.

٣- يرفض فكرة أن الحضارة لها دورة كاملة، كما يقول ابن خلدون، ويرى أن الدولاب الذي يحمل عربة التحضر، يدور على نفسه، وعندها تندفع العربة نحو الغاية الكبرى، في حركة تقدمية مستمرة.

٤- إن العجز عن صد الاعتداءات الخارجية على الحضارة، ليست سبباً لسقوطها، بل دليل على وجود انهيار سابق، كشف العدوان الخارجي عنه، ويمثل لذلك بسقوط الحضارة الرومانية، والأندلسية.

٥- يرى توينبي أن النقص في الميادين العلمية والتقنية، ليس علة في سقوط الحضارة، ولكنه مجرد عرض لا أكثر.

بعد هذا الاستعراض يذكر توينبي تصوره الخاص بسقوط الحضارة وأسبابه، ويردها إلى ثلاثة أسباب:

١- ضعف القوة المبدعة في القيادة، وتحولها إلى مجرد سلطة متعسفة.

فهذه الأقلية التي كانت نشطة أكبر نشاط في مرحلة النمو، لم تعد قادرة على القيام بالرد على التحديات التي تواجهها، ولعجزها عن ذلك، تنقلب إلى أقلية مسيطرة، تسعى بكل قواها للحفاظ على مركز قيادتها، والذي لم تعد أهلاً له، وهنا يحصل انفصال بين الأكثرية من الشعب والأمة، وبين الأقلية، وهنا يبدأ زمن الاضطرابات والفتن المحلية، أو الحروب داخل المجتمع، ومع المجتمعات المجاورة.. ويمكن أن نمثل له بما حصل في الأندلس، فلكل مدينة أمير، يقاتل أخاه أو ابن عمه، ولا يرى بأساً بالتحالف مع عدوه وعدو أمته، ثم تتساقط المدن، وتنتهي

الحضارة بسقوط مريع، يقذف بالكل خارج أسبانيا.

ويرى توينبي أن قيام الاضطرابات يحفز الأقلية لإحكام السيطرة، واستعمال القوة، وهكذا تزداد الشقة والهوة بين الأقلية والأكثرية.

٢- تخلي الأكثرية عن موالاة الأقلية المسيطرة، ثم الكف عن محاكاتها.

ففي زمن النمو تتابع الأكثرية الأقلية المبدعة، وتسير بقناعة خلفها، وبعد تحولها إلى قلة مسيطرة فاقدة للإبداع متحكمة في الأكثرية دون استحقاق، هنا تتخلى الأكثرية عن الأقلية، ثم يعقب ذلك الانشقاق.

٣- الانشقاق وضياع الوحدة، حيث تقف الأكثرية ضد الأقلية المسيطرة.. وهكذا تسقط الحضارة.

إن سقوط الحضارة يسبقه، ويقدم له، انحلال الحضارة.. فكيف يتصور توينبي ذلك؟

انحلال الحضارة:

يعرض توينبي نظريته في انحلال الحضارة بشكل واضح، وأستطيع ابتداءً القول: بأنه أقرب ما يكون للتصور الإسلامي، فهو يرى أن انحلال الحضارة يزامنه ويرافقه فساد يدب في أرواح الناس أولاً، وتغير جذري في سلوكهم، وحتى مشاعرهم، وفي كل جوانب حياتهم، فيقوم مكان الصفات الجيدة والقوى المبدعة، التي كانت تفيض بها نفوسهم -في دور النمو- يحل مكانها «ثنائية» من النزعات والمواقف

العقيمة والمتناقضة.. وهنا يتعرى الفساد الروحي، ويكشف عن فوضوية تشمل الأخلاق والعادات، وانحطاط يسود الآداب والفنون، مع محاولات عقيمة للتوفيق بين المذاهب والأديان المختلفة. وهنا قد تسعى الأقلية المسيطرة في بعض الحالات إلى فرض فلسفة بالقوة، أو دينًا مختارًا، لكنها تفشل في كل ذلك.

ويذكر استثناء واحداً -غير سليم- وهو انتشار الإسلام بين الأمم المغلوبة عن طريق القوة أو التساهل.. لقد دخلنا الأندلس بـ(١٢) ألف مقاتل وخرجنا منها مأزومين مهزومين، وعددنا أكثر من ثلاثة ملايين.. إن خرافة انتشار الإسلام بالقوة خرافة روج لها الاستعمار ورجاله، كي يبرر غزو القارات كلها ونهبها وسلبها، بل واستمرار السلب حتى اليوم، وليسوِّد وجه الإسلام.

وفي الختام أرى من النافع أن أنقل نصًا للدكتور الشرقاوي يلخص نظرية توينبي في الحضارة صعوداً وسقوطًا، فيقول[١]: «ذلك هو تصور توينبي للدورات الحضارية، فالتاريخ عنده كأنه تجربة واحدة تمت على مراحل أو دورات، وكل الحضارات التي يدرسها مرت بأطوار متشابهة في النمو واستمرار التقدم، وزيادة القوة، ثم تنشأ بعد ذلك عقبات من الداخل أو الخارج، أمام هذه الحضارات، تمثل ألوانًا من التحدي، قد

(١) في فلسفة الحضارة الإسلامية، ص٢١٥.

تعجز الحضارات عن الاستجابة لها بنجاح، فيكون التفكك والانهيار، وقد تنجح في مجابهتها فيكون التقدم والاستمرار إلى حين. على أن انهيار الحضارات في النهاية لا يمثل شراً مطلقاً، فكل تجارب الحضارات السالفة تتمثل في الحضارات الجديدة، بصورة أو بأخرى، ومن هنا فإن التاريخ لا يعرف حضارة زالت تماماً، وإنما الذي يحدث -في غالب الأمر- أن الحضارة بعد أن تتم دورتها، على يد أمة أو أمم، تقوم بعد ذلك حضارة أو حضارات جديدة».

تعقيب ومناقشة:

إذا استثنينا الهجوم اليهودي على توينبي، فإن النقد الموضوعي جاء من د. عفت الشرقاوي، وجاردنر، وسوركن.

وأهم بنود هذ النقد أن توينبي يؤمن نظرياً بحرية الاختيار، لكن نظريته تسير في اتجاه الجبر، وقد شبهه بعض ناقديه بأنه مثل عالم الكلام الإسلامي، الذي يقيم الدليل على الجبر، ولأسباب نفسية يؤمن بالاختيار. كذلك نُقدت نظريته بالنسبة للحضارة الغربية، فهو يصورها وكأنها تجتاز مرحلة عظيمة في التقدم، وهي على حافة الهاوية والانحلال، وفي ذات الوقت لا يريد الاعتراف بهذه النتيجة، والحكم على حضارة اليوم بالزوال، فيتحدث عن احتمال «إرجاء إلهي» تنجو بفضله الحضارة من هذا المصير.

يرى د. الشرقاوي[1] أن توينبي لديه قلق شخصي بالنسبة لمصير حضارة اليوم. كذلك وجه له نقد حول تقسيمه الأدوار الحضارية، من النشوء إلى الانحلال والسقوط، أساساً لفلسفته وتفسيره للتحضر، ويرفض أمثال سوركن ذلك لأن هذه النظرية تعني أن هذه الأدوار كيانات حقيقية، لا مجرد تجمع لظواهر اجتماعية وثقافية، جمعها الزمان والمكان، دون أن يكون بينها ترابط سببي موحد.

ويستشهد سوركن لافتراضه بأنه[2] «لو صح افتراضه أن الحضارات كيانات حقيقية، إذن للزم التغيير في أحد مقوماتها، لزم تغيراً في مجموع المقومات الأخرى». وهذا غير واقع ولا حاصل.

كذلك ينتقد سوركن ما يطلق عليه توينبي بأنه وحدة حضارية، فيرى بأنه ليس أكثر من مجال ثقافي، توجد فيه العديد من الأنظمة، والتكتلات الاجتماعية والثقافية، إلى جانب بعضها، وقد تكون منسجمة أو غير منسجمة. ثم يزيد سوركن -وهو ماركسي قديم منشق[3]- «كل ما ليس في أصله بنية حية لا يمكن أن يولد وينمو ويموت». ومن هذا المنطلق لا يعتبر سوركن تفسير توينبي نظرية في التطور الحضاري، بقدر ما هي نظرات تقويمية لأغراض التقدم أو التأخر الحضاري.

---

(١) في فلسفة الحضارة، ص٢١٨؛ والتفسير الإسلامي للتاريخ، ص٨٩.

(٢) التفسير الإسلامي للتاريخ، ص٩١.

(٣) المرجع السابق.

كذلك سجل سوركن أن توينبي قال بأنه يدرس حضارات ولا يدرس دولاً، لكن أغلب شواهده جاء من الدول القومية، علماً بأنه لا يعتبرها -أي توينبي- وحدات أساسية للدراسة التاريخية، وكان الأولى والأجدر به أن يأخذها من تاريخ الحضارات، إذا صح وجودها كوحدات مستقلة.. ويأخذ عليه الإطالة في كتابة «تاريخ العالم»، الذي جاء بـ (١٢) جزءاً، وذكر قضايا كثيرة حسمها من سبقه.

ومع ذلك يعترف سوركن بأن توينبي في دراسته للتاريخ جاء بأعظم الآثار الفكرية في هذا المجال.

ولعل من أفضل ما نقد به توينبي أنه -كمؤرخ- راح يأخذ الحوادث من إطارها الحضاري وظروفها التاريخية، ليبرهن بها على صحة نظريته في التحدي والاستجابة، ويفسرها ويوجهها كما يحب، فالعبيد في إيطاليا مثلاً، وعلى عهد الرومان، لا يشبهون السود في أمريكا، وليست ظروفهما واحدة. والاعتكاف للفرد شيء، ونقله لمحيط شعب أو أمة شيء آخر.

وأختم بما كتبه عن اليهود، وسبب عدائهم القاتل له[1]:

«.. أما بالنسبة لادعائهم بأنهم أصحاب حق في المطالبة بتعويضات عن الجرائم التي اقترفها الألمان بحقهم، فإن لهذا الادعاء ما يبرره، ولكن

---

(١) عقدة النزاع العربي الإسرائيلي، د. مجيد خدوري، الطبعة الأولى، ص٤٩.

ادعاءهم بأن ما اقترفته النازية بحقهم من جرائم تقضي بإعطائهم وطناً خاصاً بهم، فهو ادعاء مردود من أساسه، وإذا وجد لهذا ما يبرره فإن هذا الوطن الخاص، يجب أن يمنح لهم في الأرض الألمانية، لا في الأرض العربية، التي يملكها أهلها منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً ».

وإذا كان اليهود ما زالوا « يحلبون » من الألمان ويبتزون، فضحايا دير ياسين، وتلاميذ مدرسة حوض وذبح أهل (قانا) بلبنان، وضرب المفاعل النووي العراقي، وكهرباء لبنان، وتعويض كل لاجئ فلسطيني مما فقد، وكل أرض صادرتها إسرائيل، وكل بستان نهبته، حتى المقابر التي حولتها إلى فنادق، والمساجد التي حولتها إلى بقالات وحظائر للبهائم... كل ذلك يجب أن يدفع كاملاً، ومن أموال اليهود وليس من أموال العرب أو غيرهم.

٥- مالك بن نبي[١]:

هو مالك بن الحاج عمر بن الخضر بن مصطفى بن نبي يرحمه الله، ولد في مدينة قسنطينة في الجزائر عام (١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م).

درس الابتدائية في تبسة، وفي المرحلة المتوسطة انتقل إلى قسنطينة، وهناك تعرف على مجموعة من تلامذة الشيخ عبد الحميد بن باديس،

---

(١) مالك بن نبي، حياته وفكره، عبد الله العويس، الطبعة الأولى، ص٥٩-١٦٦.

والذين كانوا ينافحون عن الإسلام، وكان يحرص على حضور الاجتماعات ليناقش في الموضوعات العلمية والدينية.

عام ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٥م تخرج في المدرسة، وصار يبحث عن عمل، وقد سافر إلى فرنسا لكنه لم يفلح في الحصول على عمل، كما لم يحصل على فرصة عمل في الجزائر، مما اضطره للتقدم بطلب عمل، ولو بدون أجر، في محكمة تبسة، فقبل ذلك على أمل أن يتحول إلى موظف، وقد حصل له ذلك في محكمة آفلو.

لكن السفر إلى فرنسا والدراسة هناك كان من أحلامه، وقد وفق لذلك، وسجل في معهد الدراسات الشرقية، بشرط أن يؤدي امتحاناً، ولما أخفق تحول إلى مدرسة اللاسلكي، ثم إلى مدرسة الكهرباء والميكانيك، لكنه حرم من الشهادة لأسباب استعمارية كما يقول، ودرس المساحة، وإلى جانب ذلك كله كان يشارك بعض الطلبة الجزائريين دراسة خاصة –سرية– في الشعر والبلاغة والأدب.

وعاد إلى الجزائر عام ١٩٣٢م للزيارة، وقد عزم على الهجرة للسعودية، لكنه لم يوفق، كما حاول الهجرة إلى مصر وأفغانستان وألبانيا، ولم يفلح. وفي عام ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م، قدم إلى مصر وعاش فيها حتى استقلت الجزائر، فرجع إليها عام ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٣م، حتى وافته المنية عام ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م، في منزله بالجزائر.

مالك وقوس التحضر:

تقدم أن مالكًا يرحمه الله، من القائلين بدورة الحضارة، فهي عنده تمر بثلاثة أطوار[1]:

أ- طور الروح (النهضة أو الميلاد)، ويبدأ من الصفر، وهو يتفق مع لحظة وجود أو ظهور دين في المجتمع، وبداية تركيب الحضارة، ويتميز هذ الطور بترويض الغرائز، بحيث تسلك في نظام خاص، يكبح جماحها، فالروح هي المسيطرة في هذا الطور على تطور المجتمع، والمسيرة له.. ويبرز ذلك في القدرة العالية على تكييف الطاقة الحيوية للمجتمع، بحيث يتأهل لأداء وظيفته التاريخية، ويظهر أثرها في إبراز المجتمع إلى عالم الواقع، أو تجسيد المبادئ من خلال المجتمع، وتكامل بنائه، في ضوء المبدأ الجديد. وهذا التكوين تنشأ معه الأسباب التي تؤدي بالمجتمع الوليد إلى الانتقال للطور الثاني من أطوار حضارته، فبقدر إشعاع الدين الجديد في العالم، تنشأ المشكلات المحسوسة لهذا المجتمع الوليد، نتيجة توسعه، كما تتولد ضرورات جديدة نتيجة اكتماله.

ب- وصول الحضارة إلى هذا الحد، يؤذن بانتقالها إلى الطور الثاني، وهو طور «العقل».. ودخول الحضارة لهذا الطور يحدث بسبب توسع

---

(١) مالك بن نبي، حياته وفكره، ص٥٠٥.

المجتمع واكتماله، فلكي تستطيع الحضارة تلبية الضرورات المستجدة تسلك منعطفًا جديداً، وهو منعطف العقل، وهو يختلف عن سابقه، إذ أن العقل لا يملك سيطرة الروح على الغرائز، فتشرع حينئذ في التحرر من قيودها، بحيث تفقد الروح نفوذها على الغرائز تدريجياً، كما أن المجتمع يكف عن ممارسة ضغطه على الفرد، ومن المسلم به أن الغرائز لا تنطلق دفعة واحدة، وإنما بقدر ما تضعف سلطة الروح.

ومن السمات المميزة لهذا الطور، اتجاه الأفكار لتكييف المادة، أو الناحية التقنية، بدل التوجه لتكييف الطاقة الحيوية، كما هي سمة الطور الأول... فالمجتمع يميل إلى إبطال صفة القداسة في مبادئه، بمقدار تقدمه في الطور الثاني، أي في طور المشكلات التقنية ومشكلات التوسع، بحيث يمكن تفسير هذه الظاهرة بطريقتين، فهي «تقدم» من وجهة نظر الاقتصاديين، و«تخلف» من وجهة نظر فلاسفة التاريخ، إذ هي بداية الانحراف أو الشيخوخة للمجتمع.

جـ- وهكذا يبدأ خط الانحراف في سير الحضارة، وما يزال يتسع إلى أن تصل الحضارة إلى الطور الثالث من أطوارها، وهو طور الغريزة «الأفول».. وحينما يصل المجتمع إلى هذا الطور تكون الغرائز قد بلغت قمة تحررها، وأضحت هي المسيطرة على المجتمع، فتفقد الروح قدرتها على الهيمنة، وبذلك تتم دورة الحضارة، ويصل المجتمع إلى المرحلة الثالثة من مراحل التاريخ، أي مرحلة ما بعد التحضر.

سمات المراحل:

ولكل مرحلة من المراحل سمتها الخاصة، بحيث تتميز عن الأخرى سواء أكانت سابقة لها أم لاحقة، فيختلف وضع المجتمع من حيث التقدم أو التخلف أو التدهور حسب مرحلته التاريخية.

هذا العرض أو الاستعراض يناسب الحضارة الإسلامية، حيث بدأت مع انتشار الإسلام، وكانت قوية في صدر الإسلام، روحية مفعمة بطاقات الروح، حتى إذا وصلت إلى العصر العباسي، وبدأ تدوين العلوم والمعارف والترجمة، صار الطابع الغالب «العقل»، وفي أواخر العهد العباسي تحول المجتمع إلى مجتمع مترف، حيث امتلأت البيوت بالجواري الحسان والغلمان، فانفلتت الغرائز، حتى جاء الاجتياح التتري وسقوط بغداد.

ويمكن رصد مثل هذا «الخط» في الأندلس، حيث وقعت الفاجعة، ورحل من رحل، وأحرقت الكتب في الساحات العامة، وهدمت الحمامات، وأقفرت المدارس والمساجد.

والجديد عند مالك هو ما يتعلق بحضارة اليوم، فكأنه يشارك توينبي أنها سائرة نحو السقوط، ولكنه يبحث عن «إرجاء إلهي» يمنعها من السقوط.

أما مالك فوجد حلاً آخر -غير الإرجاء الإلهي- فحضارة[1] اليوم صارت حضارة العالم، لكثرة المشاركين فيها من كل أرجاء العالم، فانتقلت من حضارة مجتمع خاص إلى حضارة أوسع، ومن كونها ثمرة عبقرية معينة، إلى نطاق أعم وهكذا، ولذا فهو يرى أن قانون التغيير حدث فيه تعديل.

فالأحداث الحاضرة تدل على تغير طارئ في قانون الحضارة.. فالتطور الطارئ مع الحضارة الغربية، من الناحية الصناعية، وانتشارها من ناحية أخرى بفعل الاستعمار، نقل الحضارة من كونها في إطار مجتمع معين، أو ثمرة عبقرية معينة إلى نطاق عالمي، بحيث أصبحت العبقريات كلها تشارك في صنع الحضارة واستمرارها. وقد أحدث هذا التوسع تحولاً في طبيعتها التاريخية، فلم تعد خاضعة لقانون الدورات، فهي إنما كانت تخضع لهذا القانون حينما كانت في نطاق مجتمع معين، وعبقرية معينة، لا تلبث بعد مدة من الزمن أن تفقد إبداعها، فتأفل حضارتها.. أما في هذا العصر فليس هناك مجال بتوقع الأفول، لأن صنع الحضارة واستمرارها أصبح من شأن الشعوب الإنسانية كلها، فإذا تضاءلت الحضارة في مكان، فإنها تنمو في مكان آخر، وهذا الأمر يؤكد أن نهاية الحضارة الإنسانية -بعد هذالتطور- سيكون بالكسوف الكلي النهائي.

(١) مالك بن نبي، حياته وفكره، ص٥١٧.

وقد ظهر أثر -هذا الامتداد- في اتجاه العالم نحو تحقيق وحدته المعنوية أو الحضارية، بعد تحقيق الوحدة من الناحية التقنية المادية، فما لبث العالم يقترب من تحقيق هذه الوحدة، وإن كانت أصول الاتجاه لهذه الوحدة تمتد في أعماق تطور النشاط البشري، فإنها أخذت في التجلي بشكل واضح منذ منتصف القرن العشرين. ومن مظاهرها، في المجال السياسي ظهور هيئة الأمم، وفي مجال المواصلات ظهور البريد العالمي، وفي الثقافة منظمة اليونسكو، إلى غير ذلك من المنظمات والاتحادات التي تظهر اتجاه العالم نحو تحقيق وحدته.

من ناحية أخرى، فهذ التطور يبرز حاجة البشرية إلى منهج رشيد يحقق وحدتها، في عهد حضارتها العالمية.. ومن خلال استقراء الأحداث الحاضرة يلمح مالك بن نبي دور الإسلام، باعتباره المرشح الوحيد القادر على تركيب الحضارة الإنسانية في عهدها العالمي.

نهاية حضارة اليوم:

والذي أتصوره أن الحضارة الإسلامية قد شارك فيها أمم وشعوب مسلمة وغير مسلمة، ولم يمنعها ذلك من السقوط، ولكن يمكنني القول: بأن حضارة اليوم وبفضل النمو الهائل في العلوم والمعارف، صارت قادرة على معالجة ما يواجهها من مشاكل بطرق علمية سليمة ستطيل من عمرها.

لكنها بما حققته من صناعات حربية، ومن أسلحة فتاكة، فمتى ما اشتعلت حرب كونية، كالحرب العالمية الأولى أو الثانية، فإن نهاية هذه الحضارة ستقع، وفي مدة قصيرة جداً، تتناسب مع فتك الأسلحة الجديدة والصوايخ عابرة القارات وغيرها.

وإن ما حدث في «شارنوبل» ومفاعلها أكبر تحذير، فهناك أربع مفاعلات، تعطل واحد منها وراح يسرب إشعاعات قاتلة، ولولا رحمة الله سبحانه وتعالى، ثم الإمكانات الكبرى، لأمكن أن يستمر الإشعاع، وقد يتبعه مفاعل آخر، وهكذا..

ولو حصلت الحرب واستعملت كافة أنواع الأسلحة الفتاكة، فإن الحياة ستنتهي على الأرض خلال ساعات. علماؤنا يقولون: من حرك ساكنًا لزمه، وقد حركت حضارة اليوم مليون ساكن، والويل للعالم إذا تحركت كل السواكن، وتفجرت كل الأسلحة، فهنا يصدق قول الحق: ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ (التكوير:٦).

وتسجير البحار اشتعالها، ولن يشتعل الماء إلا بفعل مادة كيماوية تجعله كذلك، وعلينا أن نتصور اشتعال المياه كافة، فستتحول الأرض إلى جهنم حمراء، فتموت جميع الأحياء، صغيرها وكبيرها، وخلال مدة وجيزة، وقد تكون نهاية عالمنا، وبداية الحياة الثانية.

وقد يكون قول الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ... ﴾ (الأنعام: ٦٥)، قد تكون صورة قريبة، حيث ينصب العذاب على الرؤوس، وتتفجر الأرض، وقد تنقسم الأمم والشعوب إلى جماعات متناحرة، يضرب بعضها بعضاً، فلا تكون حياة ولا نجاة، ليس للإنسان فقط، ولكن لجميع الأحياء.

إن حضارة زودت إنسانها بكل وسائل الدمار الشامل، التي لا تبقي ولا تذر، والتي لا ترحم إنساناً ولا حيوانًا ولا نباتًا، لا تترك فيلاً ولا بعوضة.

ويصور الله جلّ وعلا نهاية الحضارة، فيقول: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (يونس: ٢٤).

قد يعترض معترض فيقول: أين علامات الساعة؟

فأسارع للقول: أنا أتحد ث عن نهاية حضارة اليوم، وليس نهاية العالم، فقد يتم تدمير هذه الحضارة بمنجزاتها، فيعود العالم قرونًا إلى الوراء، وهذا ما أقصده وأعنيه.

الفهرس

وكـــــلاء التـــوزيـــع

البلـد	اســم الوكيــل	رقم الهاتف	عنـوانـه
قطــر	□ دار الـثـقـــافـــة □ دار الثقافة «قسم توزيع الكتاب»	٤٤١٤١٨٢ ٤٤١٣٤٧١	ص.ب: ٨١٥٠ ـ الدوحة فاكس: ٤٤٣٦٨٠٠ ـ بجوار سوق الجبر
السعودية	□ مكتبــة الــــوراق	٤٥٥١١٤٢-٤٥٠٩٠٥٧	ص.ب: ٩ الرياض ١١٤١١ فاكس: ٤٥٣٠٠٧١
الإمارات	□ مكتبــة علــوم القــرآن	٣٧٤٤٤٥	ص.ب: ٢١٦٣٣ ـ الشارقة فاكس: ٣٦١١١٠ ـ الإمارات
البحرين	□ مـكـتـبـــة الآداب	٢٣١٠٦٢ ٢١٠٧٦٨ (المنامة) ٦٨١٢٤٣ (مدينة عيسى)	ص.ب: ٢٨٧ ـ البحرين فاكس: ٢١٠٧٦٦
الكويت	□ مكتبة دار المنار الإسلاميــة	٢٦١٥٠٤٥	ص.ب: ٤٣٠٩٩ ـ حولي ـ شارع المثنى رمز بريدي: ٣٢٠٤٥ فاكس: ٢٦٣٦٨٥٤
سلطنة عمان	□ مكتـــبة عـلـــوم القـــرآن		ص.ب: ١٩٦٠ روي ١١٢ فاكس: ٧٨٣٥٦٨
الأردن	□ مؤسسة الفريد للنـشر والـتوزيع	٥٦٠١٠٩٩	ص.ب: ٩٦٠٦٥٤ ـ عمّان فاكس: ٥٦٩٨٩٢٩
اليمــن	□ مكتبــة الجـيــل الجـديــد	٧١٣٦٣ـ٧٨٠٤٠ ٧٥٨١١ـ٢٧٠٣٨	ص.ب: ٥٤٤ ـ صنعاء
السـودان	□ دار التـــوزيـــع	٧٧٥٥٨٥ـ٧٧٩٤٦٠	ص.ب: ٣٥٨ ـ الخرطوم
مصـــر	□ مؤســسة تــوزيـع الأخـبـار	٧٤٨٨٤٤ـ٧٥٨٨٨٨ ٧٤٨٨٨٨	ص.ب: ٧ ـ القاهرة فاكس: ٥٧٤٨٧٠١
المغـــرب	□ الشركة العربية الأفريقية للتوزيع «سبيرس»	٢٤٩٢٠٠	ص.ب: 13008 - 70 زنقة سجلماسة الدار البيضاء 5 ـ فاكس: ٢٤٩٢١٤
إنكلتــرا	□ دار الرعـايــة الإســلاميـــة	(01) 272-5170/ 263 - 3071	Muslim Welfare House, 233. Seven Sisters Road, London N4 2DA. Fax : (071) 281 2687 Registered Charity No: 271680

ثمن النسخة

الأردن	(٥٠٠)	فلس
الإمارات	(٥)	دراهم
البحرين	(٥٠٠)	فلس
تونس	دينار	واحد
السعودية	(٥)	ريالات
السودان	(٤٠)	دينارًا
عُمان	(٥٠٠)	بيسة
قطر	(٥)	ريالات
الكويت	(٥٠٠)	فلس
مصر	(٣)	جنيهات
المغرب	(١٠)	دراهم
اليمن	(٤٠)	ريالاً

* الأمريكتان وأوروبا وأستراليا وباقي دول آسيا وأفريقيا، دولار أمريكي ونصف، أو ما يعادله.

مركز البحوث والدراسات

هاتف : ٤٤٤٧٣٠٠

فاكس : ٤٤٤٧٠٢٢

برقياً : الأمة ـ الدوحة

ص . ب : ٨٩٣ ـ الدوحة ـ قطر

موقعنا على الإنترنت:

www.islam.gov.qa

البريد الإلكتروني :E-Mail

M_Dirasat@Islam.gov.qa

رقــم الإيـــداع بــدار الكــتب القطريـــة
٢٩ / ٢٠٠١
الرقم الدولي (ردمك) : ٠ - ١٦ - ٤٨ - ٩٩٩٢١



مطابع الراية - قطر

هذا الكتاب .. محاولة لمسح الفكر الحضاري، والمساهمة بتقديم رؤية للملف الحضاري، التاريخي والمعاصر بشكل عام، الأمر الذي أصبح يشكل أولوية في مجال الدراسات الإنسانية والحضارية، وعلى الأخص في عصر العولمة وتحول المواجهات من الميدان العسكري إلى الميادين الحضارية والثقافية.

إن ملف الشهود الحضاري هو الملف المفتوح باستمرار، على مستوى الذات و(الآخر)، على حد سواء، ذلك أن التأهل للشهود يتطلب تحقق الوعي بأن الركائز الحضارية المؤهلة للحياة والاستمرار هي عالم الأفكار، ذلك أن عالم الأشياء بكل أبعاده لا يخرج عن أن يكون تجلياً لعالم الأفكار.. فالغياب الحضاري، الذي يتولد عن عدم وعي الذات ووعي (الآخر) يعني الموت والخروج من ساحة الشهود.. كما أن فقدان معايير الشهود يعني السقوط والارتماء الحضاري، أو العمى الحضاري.. إضافة إلى أن عدم وعي (الآخر) يعطل مهمة الشهود.

والكتاب على الجملة، يمكن أن يساهم بتشكيل ثقافة حضارية ويضع لبنة على طريق استرداد الشهود للأمة المسلمة، والتدليل على أن الأمة المسلمة، التي هي خلاصة تجارب الأمم بما تمتلك من شهود تاريخي ومعايير خارجة عن وضع الإنسان، مؤهلة لإنقاذ الحضارة الإنسانية اليوم، وإلحاق الرحمة بالعالمين.

موقعنا على الإنترنت: www.islam.gov.qa

البريد الإلكتروني: E-Mail: M_Dirasat@Islam.gov.qa